Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 43:3 (2008)

نحو علم للأديان في جامعات العالم الإسلامي

دين محمد محمد ميرا

يقوم هذا البحث على فرضية عدم وجود "علم الأديان" بالمعنى العلمي الدقيق في العالم الإسلامي على الرغم من وجود تراث علمي رائد في المجال لعلماء المسلمين على مدى القرون، ويحاول أن يبين ضرورة إيجاد هذا العلم في جامعات العالم الإسلامي، وأن يتناول العوائق التي تعترض قيامه وسبل التغلب عليها، كما يحاول تلخيص أهم ما يتوقع من هذا العلم من أدوار ومهام في إطار معطيات عالمنا المعاصر.

علم الأديان وأهميته:

أقصد بعلم الأديان "النشاط العقلي المنظم المهتم بدراسة الأديان نشأة وتاريخاً وتطوراً، وعقائد ومذاهب وطوائف، وبدراسة أثرها وتأثيرها على الواقع الإنساني في جميع أبعاده وكافة جوانبه دراسةً تقوم على مناهج علمية وتعتمد على مصادر أساسية وتهدف إلى الفهم والمعرفة قبل النقد والمقارنة"[1].

لقد أحسّ الغرب بأهمية هذا العلم لا لتديّنه أو اقتناعه بالدين، إنما لتقديره مكانة الدين في حياة الإنسان فرداً وجماعة في جميع الأزمنة والأمكنة تقديراً صحيحاً. وظهر هذا الإحساس على الصعيد الواقعي وفي شكل منظم منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر على الرغم من علمانية المجتمعات

1- يمكن أن يعتبر هذا تعريفاً وظيفياً لهذا العلم الذي نريد الحديث عنه، ولا مانع من أن يعاد النظر فيه إذا اتفق الباحثون والعلماء على رؤية معينة واضحة تمثل هويتنا الثقافية وفلسفتنا الكونية. وهناك جدل واسع في العالم الغربي حول ماهية هذا العلم على الرغم من مضي أكثر من قرن على ظهوره هناك. وفي بداية القرن العشرين قدم لويس جوران في أول كتاب غربي يحاول التأريخ لهذا العلم تعريفاً ولم يستمر الباحثون هناك في التمسك به والعمل عليه.

انظر: Jordan, Louis H. *Comparative religion: its genesis and growth*(Edinburgh. 1905) p 63

Sharpe, Eric J., *Comparative religion A history*(Charles Scribers Sons, New York, 1975) p xii

وللوقوف على طرفٍ من المناقشات التي استمرت في الغرب منذ البداية حول تسمية هذا العلم وتحديد ماهيته يمكن الرجوع إلى كتاب عالم الأديان الكبير نينيان سمارت:

Ninian Smart, *Concept and Empathy: essays in the study of religion*(McMillan 1986) P 157-230

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الغربية وتأثير مبادئ التنوير الطاغية على معظم توجهاتها العلمية والفلسفية والاجتماعية. وإذا حدث في العصر الحديث تطورات هائلة ـ في مجتمعات الغرب ـ في كل فروع المعرفة الإنسانية والاجتماعية تجاري التطور العلمي والتكنولوجي، ولم يكن مجال الدين خارجاً عنها فهذا أمر طبيعي في مجتمع يخطط لنجاحه ونهضته، ويهتم بالرؤى المستقبلية لكي يستمر في المقدمة كقوة موجهة، لا في المؤخرة كقطيع مقودة.

وزاد اهتمام الإنسان الغربي المعاصر بهذا العلم منذ النصف الثاني من القرن العشرين بسبب اقتناعه بما يمكن أن يلعبه الدين من دور جوهري في المحافظة على القيم وفي استقرار المجتمعات وإحساسه المتنامي بفشل النظم الوضعية. وزاد أكثر في إطار التوجه نحو الآخر الذي أفرزته العولمة بقوة منذ سبعينيات القرن العشرين، فأصبح علم الأديان في بلاد الغرب علماً مؤسساً له جامعاته ومراكزه ومناهجه ومذاهبه ونظرياته واتجاهاته وعلماؤه وكتبه ودورياته ومنابره مهما كانت المشكلات المنهجية أو الصراعات الاتجاهية التي تؤثر في مسيرته إيجاباً وسلباً[2].

ولم يختلف الشرق غير الإسلامي عن الغرب في الانطلاق نحو الآخر ـ ديناً وثقافة ـ وإن تم ذلك في صورته المنظمة بعد فترة من الاهتمام الغربي، فقد ظهر في اليابان والهند والصين نشاط ملحوظ بقوة ـ في هذا المجال ـ منذ الحرب العالمية الثانية ويستمر بنفس القوة والحيوية إلى يومنا هذا[3].

أما العالم الإسلامي فلا نستطيع إدعاء وجود هذا العلم لديه بالمفهوم الذي حددناه في بداية كلامنا على الرغم من اشتراك المسلمين جميعاً أو وجوب اشتراكهم في الإيمان بما ذكرناه آنفاً من اقتناع الإنسان المعاصر بأهمية هذا العلم، وعلى الرغم من وجود أسباب موضوعية تدفع المسلم إلى الاقتناع بضرورة هذا العلم.

أهم الأسباب التي تقتضي وجود علم الأديان:

لعلنا نستطيع أن نوجز أبرز تلك الأسباب فيمايلي:

أ- طبيعة الرسالة الإسلامية:

فالرسالة الإسلامية التي أرسل الله بها خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم عالمية في أساسها، قال تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِيْ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُوْنَ لِلْعَالَمِيْنَ نَذِيْرًا**﴾ (سورة الفرقان، الآية:1).

2- انظر لمسح موجز جيد لتطور هذا العلم وأوجه نقد غربية لتوجهاته وأسسه:
King, Richard: *Orientalism and Religion*(Routledge, London, New York 1999, reprinted 2002) p.35-61

3- يمكن الإشارة إلى: كتابات الفيلسوف الهندي الحديث "رادهاكريشنان" في الهند، والعالم الياباني "سوزوكي" وكتابات "اسوتزو" على سبيل المثال لا الحصر.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (سورة سبأ، الآية: 28) وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، الآية: 107)[4]. وعالمية الإسلام تعني فيما تعني محاولة المسلمين نشر رسالته في ربوع العالم والتبشير بها بين الأمم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُوْنَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (سورة آل عمران، الآية:104)، وأن خيرية هذه الأمة مرتبطة بالقيام بهذا الأمر بنص القرآن الكريم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ﴾ (سورة آل عمران، الآية:110)، وهذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو مما يستلزمه التواصي الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر، الآية: 3).

وهذا بلاشك يقتضي أول ما يقتضي محاولة المسلمين التعرف على ثقافة الآخرين وتوجهاتهم الفكرية، ولا يخفى أن محور هذه التوجهات والثقافات دينهم وعقيدتهم.

وإذا أضفنا إلى هذه العالمية الانفتاح الذي تتسم به الرسالة الإسلامية، وهو خاصية ملازمة لعالميتها، وتجلت في أروع صورها على مر التاريخ الإسلامي أدركنا أن من مقتضيات هذه الرسالة الانفتاح على الثقافات والأديان أو قل الانفتاح على الآخر بكل أبعاده وفي كل أنشطته. إن في كتب التاريخ التي سطرها المسلمون، وفي الدراسات الأثرية التي قاموا بها وإن تكن قليلة، وفي المناقشات العلمية التي سجّلوها، والحوارات الفكرية التي خاضوها على قاعدة من الاحترام المتبادل وتحت رعاية الخلفاء والسلاطين[5]، ونماذج التعايش التي برهنت للعالم كله على طبيعة الإسلام السمحة، أقول إن في كل ذلك

4- وينبغي أن نشير هنا إلى أن "الإسلام" ظهر عالمياً منذ اللحظة الأولى على خلاف الأديان الأخرى. فالمسيحية كانت في أساسها إسرائيلية محلية حتى حوّلها "بولس" إلى أممية عالمية، واليهودية لم تدع يوماً أنها عالمية، ولا هي كذلك، ونظرية الشعب المختار تقف عائقاً أساسياً نحو عالميتها حتى لو أرادت ذلك. والبوذية في أساسها كانت تياراً دينياً داخل الإطار الهندوسي حتى أخرجها "الملك أشوكا" في القرن الثالث قبل الميلاد من الهند. وظلت الهندوسية محلية منذ القدم إلى أن ظهر "فيفيكا نندر" في أواخر القرن التاسع عشر ليجعلها عالمية بعد صبغها بالفيدانتية. أما أديان الصين فظلت محصورة داخل سورها العظيم. ولم تخرج الأديان اليابانية إلى فضاء العالمية إلا منذ القرن العشرين. أما الأديان الإفريقية المتعددة فلا تعدو أن تكون شعائر محلية لا تتجاوز في بعض الأحيان القرية الواحدة. فالعالمية إذن وصفٌ أصيل للإسلام، وجاءت تعاليمه لتؤكد هذه الأصالة بصورة عملية.

5- انظر في هذا:

Waardenburg. Jacques, *Muslims and other religions in contex*(Walter de Gruyter [WDEG] Berlin, New York,2003), p 87-161

Huge, Goddard, *A History of Christian– Muslim Relations*(Edinburg University press, 200), p19-108

Nasr, S.H. "Islam and the encounter of world religions" in Nasr S. H. *living Sufism*(Suhail academy, Lahore, Pakistan 2000), p 114-128.

دليلاً واضحاً على مدى الانفتاح الذي اتسم به الإسلام في نظرته إلى الآخرين وتفاعله مع أديانهم وحضاراتهم. ولم يكن هذا إلا تطبيقاً عملياً للتعليمات القرآنية واتباعاً للأسوة النبوية الكريمة.

انظر إلى هذه الآيات القرآنية الكريمة، حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّيْنِ مَا وَصَّى بِهِ نُوْحًا وَالَّذِيْ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيْمُوْا الدِّيْنَ وَلَا تَتَفَرَّقُوْا فِيْهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِيْنَ مَا تَدْعُوْهُمْ إِلَيْهِ اَللهُ يَجْتَبِيْ إِلَيْهِ مَنْ يَشَآءُ وَيَهْدِيْ إِلَيْهِ مَنْ يُنِيْبُ وَمَا تَفَرَّقُوْا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِيْنَ أُوْرِثُوْا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِيْ شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيْبٍ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَآ أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اَللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اَللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيْرُ** ﴾ (سورة الشورى، الآيات: 13-15). ويقول عز وجل: ﴿ **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوْهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيْمٍ وَإِنْ جَادَلُوْكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ اَللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيْمَا كُنْتُمْ فِيْهِ تَخْتَلِفُوْنَ** ﴾ (سورة الحج، الآيات: 67-69). ويقول: ﴿ **وَإِنْ كَذَّبُوْكَ فَقُلْ لِّيْ عَمَلِيْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُوْنَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُوْنَ** ﴾ (سورة يونس، الآية:41). ويقول جل جلاله: ﴿ **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيْمُ** ﴾ (سورة سبأ، الآية: 26). ويقول: ﴿ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوْا وَتَعَاوَنُوْا عَلَى الْبِـرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوْا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوْا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيْدُ الْعِقَابِ** ﴾ (سورة المائدة، الآية: 2). ويقول تبارك وتعالى: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِيْنَ لَمْ يُقَاتِلُوْكُمْ فِي الدِّيْنِ وَلَمْ يُخْرِجُوْكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوْهُمْ وَتُقْسِطُوْا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِيْنَ** ﴾ (سورة الممتحنة، الآية: 8). ويقول حكاية عن هود عليه السلام: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيْ وَآتَانِيْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُوْنَ** ﴾ (سورة هود، الآية: 28).

فلا غرابة ـ والحالة هذه ـ أن يكون خطاب الإسلام أكثر عالمية من أيّ دين آخر على وجه الأرض بدون أدنى مبالغة لأنه كما يقول سيد حسين نصر: "لم يجد مشكلة ما في وجود الأديان الأخرى"[6].

6- Nasr, S. H: Ibid , p 114

ب ـ اهتمام القرآن الكريم الأساسي بالأديان:

وهذا واضح لكل من يقرأ القرآن الكريم ولو بصورة عابرة، وكان هذا الاهتمام طبيعياً جداً لكون هذه الرسالة مصدقة لما سبقها ومصححة له ومهيمنة عليه. لقد تحدث القرآن الكريم حديثاً طويلاً مفصلاً عن أهل الكتاب "اليهود والنصارى أساساً" وتحدث عن الصابئة والمجوس والمشركين والتيارات الإلحادية المختلفة، وقد تحدث عن ملة إبراهيم ودين الفطرة والحنيفية، وناقش كثيراً من جوانب العقيدة والشريعة في الأديان الأخرى، وعرّف بكثير من أخبار الأمم السابقة والمجتمعات الدينية المختلفة، وسرد كثيراً من أخبار الأنبياء السابقين وذكر بالنص منهم خمسةً وعشرين مع أهم أحداث حياتهم ومعالم رسالاتهم. بل إنه فيما يخص اليهود والنصارى دخل في كثير من تفصيلات عقائدهم وتاريخهم وفرقهم مما جعله ثريّاً بالمواد العلمية التي تشكل أساس قيام هذا العلم الذي نتحدث عنه. ولعل من إحدى وجوه شمولية القرآن الكريم في حديثه عن الأديان ـ كما قلت في مكان آخر ـ أنه ناقش العقائد المختلفة وعرض موقفه منها في إطار يمكن أن يستوعب كل ما يمكن أن يجد من فلسفاتٍ ومذاهب دينية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها [7].

لقد شمل القرآن الكريم في تناوله قضايا المنهج أيضاً، فوفر كثيراً من التوجيهات المنهجية يمكن أن تعتبر أصولاً عامة ومبادئ تحدد الإطار المنهجي للبحث العلمي في مجال الأديان استفاد منها علماء المسلمين في دراساتهم وبحوثهم، ومجادلاتهم بالحسنى مع غير المسلمين من أهل الأديان الأخرى. ولعل من أبرز تلك الآيات الكريمات في هذا الإطار على وجه الخصوص ـ إضافة إلى بعض ما ذكرناه آنفاً ـ قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِيْ ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ**﴾ (سورة سبأ، الآية: 24). وقوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوْا فِي الْأَرْضِ فَتَكُوْنَ لَـهُمْ قُلُوْبٌ يَعْقِلُوْنَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُوْنَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوْبُ الَّتِيْ فِي الصُّدُوْرِ**﴾ (سورة الحج، الآية: 46). فإذا كانت الآية الأولى تشكل قاعدة صلبة لبناء منهج المقارنة و "الجدل المحمود" فإن الآية الثانية تمثل أساساً قوياً لبناء مناهج البحث التاريخي والأثري وما يعرف اليوم بالأنثروبولوجي. ولعل أفضل من تجلت في كتاباته معالم هذه المناهج ـ في مجال الأديان ـ هو أبوالريحان البيروني [8].

7- انظر: دين محمد، "من مناهج علماء المسلمين في دراسة الأديان"، **حولية** الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، العدد الثالث، 1996م، ص 79-80.

8- انظر تناولنا للبيروني من الناحية المنهجية في المصدر السابق. وانظر أيضاً:

Mujthabai, F., *Hindu Muslim Cultural Relation* (India 1978) p 21-30.

بل إن القرآن الكريم طرق قضايا في مجال الأديان تشتمل على كل ما يعرف اليوم في فلسفة الدين من مسائل مثل قضية الدين والوحي والنبوة والخير والشر والموت والآخرة وخلود النفس ودعاوى الأفضلية بين الأديان وما يتعلق بالعلاقة بين الأديان والمجتمعات الدينية. لقد تحدث القرآن عن هذه القضايا بلغة واضحة محددة المفاهيم ومقيدة الأطر مؤسساً كل ما يقول على العقل والعلم، داعياً إلى التأمل والتدبر والاستفادة من الخبرة والتجربة.

لقد أبدع علم الكلام في هذا إبداعاً نستطيع معه أن نقول: إن ما يعرف اليوم بفلسفة الدين يوجد أساساً في علم الكلام، ويشكل كل مباحث فلسفة الأديان بعض أهم مباحث هذا العلم العظيم كما تطور لدى أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية ولدى المعتزلة والشيعة.

فمن الحري لمثل هذا الاهتمام المنظم للقرآن الكريم الذي يؤمن المسلمون جميعاً بأنه كلام الله الحق أن يحفز المسلمين إلى تأسي خطاه في المجال، والمضي في البحث العلمي فيه وخاصة ونحن نرى القرآن الكريم ينعي باللائمة على الذين لا يتدبرون آياته ولا يحاولون فهم معطياته، يقول تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوْبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ (سورة محمد، الآية: 24)، ويقول: ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوْا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ (سورة ص، الآية: 29).

ج- الاحتكاك الإسلامي بالمجتمعات الدينية الأخرى:

وهو احتكاك بدأ مع أول نزول للوحي واستمر على مدى تاريخ الإسلام الطويل ولا يزال مستمراً إلى يومنا هذا. وقد تناول "واردنبرج"[9] هذه الاحتكاكات من خلال تقسيمه إلى مراحل على النحو التالي:

فقد احتك المسلمون منذ اللحظة الأولى من تاريخهم باليهود والنصارى والمجوس، وسمعوا بالصابئة على الأقل. وخلال القرن السابع والثامن الميلادي كان احتكاكهم بأهل الأديان الأخرى على النحوالتالي:

الزرتشية في العراق وإيران ووسط آسيا.

المسيحيون بطوائفهم المختلفة من النساطرة في العراق وإيران ووسط آسيا، واليعاقبة من سوريا الكبرى ومصر وأرمينيا، وكذلك الملكانية في سوريا والأرثوذكس اللاتين في شمال إفريقيا والآريوسية في

9- Wardenburg, Jacques: op cit p 166-168.

Also see A. Welch and P. Cachia (eds.) *Islam: Past Influence and Present Challenges* (Edinburg, Edinburg University press 1979) p 248-249.

أسبانيا..وغيرها.

اليهود في العراق وإيران وسوريا ومصر وشمال إفريقيا.

السامرية في فلسطين.

الصابئة المندائية في جنوب العراق والصابئة الحرانية في شمالها.

والمانوية في العراق ومصر وإيران ووسط آسيا.

و البوذية في الهند ووسط آسيا.

والهندوسية في الهند.

وفيما بين القرن التاسع والثالث عشر كان احتكاك المسلمين بالملكانية الأرثوذكسية في الأناضول وجزر البحر الأبيض المتوسط، والمسيحية اللاتينية في أسبانيا وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وصقلية، والصليبيين اللاتين في سوريا، واحتكوا كذلك بالأرمن الذين كانوا يعيشون بين المسلمين وفي الأمبراطورية البيزنطية، والسّلاف في جنوب شرق روسيا، والقبائل التركية في وسط آسيا قبل إسلامهم، والبوذيين في السند والبنجاب ووسط آسيا، والهنود في البنجاب، ومجتمعات دينية أخرى صغيرة في شرق إفريقيا وغربها، بالإضافة إلى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. وكانت هناك في هذه الفترة علاقة جيدة وصديقة مع البوذيين في بورما والهندوس في الهند وأتباع الأديان الصينية في الصين.

أما في الفترة من القرن الثالث عشر إلى السادس عشر فقد ازدادت العلاقة الطيبة للمسلمين ـ وخاصة الصّوفية منهم ـ مع أتباع العقائد المحلية في الهند وبورما وماليزيا وسومطره وجاوه والصين، وكان هناك احتكاك مع المغول وقد أثر هذا إيجابياً في مزيد من العلاقة مع النساطرة والبوذيين في وسط آسيا، كما أن الفتوحات المتجددة في شمال الهند زادت من علاقة المسلمين بالهنود في شمال الهند كما زادت فتوحاتهم في شرق وغرب إفريقيا من اتصالهم بالأديان الإفريقية، و أسهم فتح القسطنطينية إلى مزيد من الاحتكاك بالمسيحية الأرثوذكسية.

أما من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، فقد كان هناك صراع بين العالم الإسلامي والعالم الغربي ممثلاً في الكاثوليك اللاتين، والكنيسة الإنجيلية والبروتستانت اللوثرية والإصلاحية، كما أصبح مرحلة ما بعد القرن التاسع عشر فترة أخرى من المواجهة بين العالم الإسلامي والغرب، ولكن هذه المرة بين الدول الإسلامية الضعيفة والغرب القوية، وقويت الإرساليات المسيحية كما نشطت الردود الإسلامية، وهناك منطقتان إسلاميتان شهدتا حروباً طاحنة لعب الدين فيها دوراً مَّا وهما منطقة الشرق

الأوسط: بين الفلسطينيين واليهود، ومنطقة شبه القارة الهندية: بين الهند وباكستان.

وكل هذه الاحتكاكات كان لابد أن تولد لدى علماء المسلمين ومتكلميهم دوافع قوية لدراسة تلك المجتمعات الدينية وبحث عقائدهم وأفكارهم، تمهّد لقيام هذا العلم بصورة منظمة، لكن الذي حدث هو أن كتابات ظهرت، وبحوثاً أجريت، ومواجهات سياسية وفكرية وعسكرية قد تمت، ولم يقم العلم بالمعنى الحقيقي كما سنبيّن لاحقاً.

د ـ وجوب طرح الرؤية الإسلامية:

إن ضرورة طرح الرؤية الإسلامية كبديل للرؤى الأخرى ـ سواء أكانت تلك الرؤى دينية، أو فلسفية تقوم مقام الدين كما حاولت الشيوعية ذلك منذ 1917م أو تحاول أن تحل محل الدين فيما يخص جوانب الحياة الاجتماعية بكافة أبعادها السياسية والاقتصادية والعلمية وغيرها كما تتجلى في العلمانية وفي كثير من الطوائف الدينية الجديدة في الشرق والغرب في أيامنا هذه ـ تستلزمها عالمية الإسلام استلزاماً بيّناً، فكما هو معلوم وأصبح من بدهيات غير المسلمين أيضاً ـ أن الإسلام الحنيف ليس ديناً بالمعنى الذي يفهم به الناس هذا المصطلح في العالم المعاصر. ليس هو في الحقيقة Religion بالمعنى الذي فهم الرومان به الكلمة أو بالذي فهمه به الغرب بعد التغير الذي أحدثه الكاتب المسيحي Lactantivs في القرن الثالث الميلادي(10).

10- أظنني في حاجة إلى تعليق حول كلمة "Religion" التي تستعمل في الكتابات المعاصرة مرادفة لمصطلح "الدين" بدون أي تحفظ. والحق أن مصطلح "Religion" يرتبط ـ تاريخياً ـ ارتباطاً وثيقاً بالتراث الفكري الغربي وثقافته ليس من المستحسن إهماله في أيّ تناول علمي للدين. و "Religion" مصطلح مأخوذ من الأصل اللاتيني "Religio" وحسب شيشرون أن الكلمة تعني "إعادة قراءة أو إعادة البحث" واصطلح على "محاولة إعادة اكتشاف تقاليد الآباء والأجداد". وهذا الاستعمال هو الذي ساد في الإمبراطوية الرومانية حتى أصبحت الكلمة مرادفة لكلمة Tradition أو "الإرث الفكري والثقافي" الذي فهم على أنه عبارة عن تعاليم الآباء والأجداد التي تقبل بلا جدال، ويتضمن كذلك "أداء الشعائر الوثنية القديمة وتقديم القرابين للآلهة" بالطريقة التي كان الآباء والأجداد يقومون بها. فوفق هذا المفهوم لم يكن اليهود والنصارى متدينين بالمعنى الذي استعملت فيه كلمة Religion لكن ظهر في القرن الثالث الكاتب المسيحي Lactantious الذي رفض تحليل شيشرون اللغوي، ورجع المصطلح إلى "Religave" بدلاً من "Religio" ويعني "الارتباط" وأطلق كمصطلح على "عبادة الإله الحق" مهما كان طريق العبادة. ليس المهم كيفية العبادة،إنما هدف العبادة. إن الذين يعبدون آلهة متعددة فهم أصحاب الباطل، أما أصحاب الحق فهم الذين يعبدون إلهاً واحداً، وهم وحدهم متدينون. وبغض النظر عن مدى دقة ما يقوله Lactantious فإن ما قاله هو الذي تبناه الغرب المسيحي في تاريخه الطويل منذ الفترة الهيلينستية، وظل الأمر كذلك

وليس هو ديناً على النحو الذي يتصور اليهود أو النصارى أوالهندوس أو البوذيون دينهم.

لقد سألت السفير السريلانكي في مصر في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين ـ وكان هندوسياً ـ يحب لحم البقر ويكثر من أكله، وقلت كيف تبرر تناول اللحم وهو محرم في دينك؟ وكانت إجابته ـ وكان جادّاً ـ أن لا صلة بين الدين والطعام. والإسلام خلاف هذا تماماً. إنه عقيدة وشريعة وسلوك، قائم على الربط بين الدنيا والآخرة باعتبارهما مملكة الله رب العالمين. إنه هو الذي يحدد التصور الكوني والإطار الفكري لأتباعه. كما يحدد لهم الحلال والحرام، والجائز وغير الجائز في المعاملات بجميع مظاهرها وأبعادها، في الظاهر والباطن، في الفرد والجماعة، في الجانب المادي والروحي، يحددها نصّاً أو بتوفير أصول معرفية وقواعد علمية تضمن استقامة العقل الإسلامي في اجتهاداته واستلهاماته في محاولة التفاعل مع متغيرات الحياة، وموجبات التطور ومقتضيات الواقع[11].

والدعوة الإسلامية ليست غير السعي لنشر هذه الرؤية الإسلامية بين العالمين باعتبارها الرؤية المتوازنة التي تحفظ للإنسان كرامته، وللكون توازنه وللمجتمعات البشرية المختلفة سلامها وأمنها واستقرارها، إن اعتنقها الناس جميعاً كان بها، وإن لم يعتنقوها فتعايش حقيقي يسوده الحب والتعاون باعتبار الجميع عيال الله كما جاء في الحديث النبوي الشريف: "الخلق كلهم عيال الله، فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله"[12]. وكما نص القرآن الكريم: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُوْلُوْا اشْهَدُوْا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ**﴾ (سورة آل عمران، الآية: 64).

ومن البدهيات العقلية أن هذا الطرح الإسلامي يقتضي خطاباً مناسباً لا تحققه كما ينبغي إلا

= إلى ما بعد التنوير لكن يبدو ـ من متابعة ماتصدره الأقلام المعاصرة في الغرب ـ أن هناك إصراراً على إعادة رؤية شيشرون، لأنها تعني الكثير بالنسبة لأولئك الذين ينزعون نحو التعددية بالمعنى الذي لا يعترف به أي دين بما فيه المسيحية. فالإطلاق اللاكتيني إقصائي في نظرهم في حين أن مقابله الشيشروني تعددي. انظر:

Lactantious: "Institutiones Divinae" iv, 28 trans. Sister Mcdonald, 1964, pp.318-20, quoted in Balagangadhara, *The heathen in his Blindness: Asia, the West and the dynamic of religion* (Leiden: E. J. Brill, 1944), p 242.

11- لقد أبدع العقل الإسلامي علماً منهجياً أصيلاً باسم:علم أصول الفقه لضبط عملية الاجتهاد والتعامل مع النص لأجل التفاعل مع الواقع. وهم على علم يغني المسلمين عن الجري وراء ما يعرف اليوم في الغرب "بالهيرمونيطيقيا" الذي انساق وراءه كثير من الكتاب في **مجال الفكر الإسلامي** باسم الحداثة وحل معضلة "النص والواقع"، وهي معضلة لا تقوم إلا في أذهانهم. ولعل أبرز الأمثلة لذلك محمد أركون ونصر حامد أبوزيد، محمد عابد الجابري.

12- رواه الطبراني في **المعجم الكبير**.

معرفة "الرؤى البديلة" التي تحكم فكر الآخر، وتدفع توجهاته وتسيطر على مواقفه وتؤثر في اختياراته معرفة دقيقة تسمح باختراق عقله وبالنفوذ إلى وجدانه والتأثير في عمقه، ومن هنا تأتي ضرورة الاهتمام بما يعتقده الآخر في أولويات العمل الإسلامي، وهي ضرورة متجددة بتجدد التيارات الدينية والمذاهب الفلسفية المنافسة للإسلام وبالتالي فهي ضرورة مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهذا يقتضي إذن ليس فقط وجود علم الأديان لدى المسلمين إنما حضوراً متجدداً له في الواقع الفكري والاجتماعي لديهم.

هـ ـ عامل تعدد الأديان:

وتتبع هذا الذي قلناه عن"الرؤى البديلة" ـ وربما كنتيجة منطقية له ـ قضية "التعددية الدينية" التي تعتبر من كبريات المشاكل الفكرية والدينية في مجتمعات العصر الحديث كما كانت دائماً،وإن كانت غائبة عن المجتمعات الإسلامية أو وجدت فيها أقل حدة مما هي عليها في المجتمعات الدينية الأخرى التي لم تتسم بما اتسم به الإسلام من الاعتراف بالأديان الأخرى من الناحية الوجودية وضمان أمن أتباعها الاجتماعي سياسياً واقتصادياً وثقافياً.

لقد تعامل الإسلام مع قضية "التعدد" بشكل إيجابي منذ أول لحظة، وقوله تعالى: ﴿**لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ**﴾ (سورة الكافرون، الآية: 6) ظل من محكمات القرآن الكريم التي توجه مواقف المجتمعات الإسلامية. وكان المجتمع الإسلامي الأول الذي أسسه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة المنورة مجتمعاً تعدّديّاً يعترف بالآخر اعترافاً يقوم على مبدأ المواطنة وحقوق الإنسان كما نراه في دستور المدينة[13]. وعلى طول التاريخ الإسلامي كان المجتمع الإسلامي مجتمعاً يعترف بـ: "التعدد" ويؤمن بالتعايش السلمي بين الجماعات الدينية المختلفة في الدول الإسلامية، ويمد يد الاحترام المتبادل إلى الجماعات المختلفة خارج سلطان الدولة الإسلامية. ولم يشهد التاريخ الإنساني مجتمعاً اهتم في دستوره وقوانينه بقضية التعدد والتعايش وبيان الحقوق والواجبات في هذا المجال مثل المجتمع الإسلامي[14].

13- انظر: محمد حميدالله، **مجموعة الوثائق السياسية**، دار الإرشاد، بيروت، ط 2، 1389 – 1969م، ص 31-47.

14- لعل من الكتب المفيدة في تجلية هذه الناحية:

Waardenburg J. [ed.]: *Muslim Perception of Other Religions Throughout History*(Oxford University Press), 1999.

Weeramanthry, S.G., *International Human Rights in an Islamic Perspective*(MICH, Colombo, Sri Lanka, 1982).

أبويوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم، **كتاب الخراج** مع شرحه **فقه الملوك** لعبد العزيز الرجي، تحقيق أحمد عبيد الكبيسي، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1973م.

وتم ذلك بتوجيه من تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ولم يعرف التاريخ أقلية دينية أو عرقية أمنت على نفسها ومالها ودينها وثقافتها كما عرفها في المجتمع الإسلامي الذي حكمته الشريعة الإسلامية، ولعل مفهوم "أهل الذمة" في الإسلام هو أول نظرة جدية إلى الأقليات وحقوقهم في تاريخ البشرية كلها.

ولذلك لم يكن تعدد الأديان أو تنوع الثقافات مشكلة بالنسبة للعالم الإسلامي،لأن التعدد في نظر الإسلام نتيجة منطقية للاختيار الذي يتمتع به الإنسان وعليه أن يتحمل مسئولية هذا الاختيار ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِيْنَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ (سورة هود، الآية: 118-119). لكنه كان مشكلة كبيرة لمعظم المجتمعات البشرية في التاريخ، وهي مشكلة كبيرة للمؤسسات الدينية في الغرب المعاصر ولم تستطع هذه المؤسسات ـ على الرغم من محاولات لاهوتية مضنية وسعي فكري حثيث لإيجاد حل لإشكالية التعدد على نحو يضمن حقوق الإنسان ويحترم الأديان والثقافات ـ أن تخرج بصيغة مناسبة مقبولة إلى يومنا هذا[15]. مما جعل كثيراً من المفكرين يرون في "العلمانية" حلاً لها.

ومع أن القضية لا تمثل أيّ مشكلة بالنسبة للإسلام والمسلمين ـ كما قلنا ـ إلا أنها جُعلت مشكلة في العالم المعاصر، ويجبر المسلمون على مناقشة القضية تحت تأثير من التوجهات الغربية الأمر الذي جعل كثيراً من الضباب الفكري والغموض المفهومي والتحليل السطحي يسود العالم الإسلامي كما يسود العالم الغربي.

ومهما يكن الأمر وبدون الدخول في تفصيلات ما يسمى بمشكلة "التعدد" أودّ أن أقول: إن التعامل مع هذه المشكلة تعاملاً حقيقياً يقتضي إلماماً جيداً بالأديان المتعددة وتياراتها المتنوعة. ونلاحظ في الكتابات المعاصرة المتعلقة بهذه القضية كثيراً من الانحراف وقدراً كبيراً من الانخداع بشعار " التعددية " وفق تحديدات التيارات الغربية المناصرة لها، ونتيجة الجهل الطاغي بتوجهات الفكر الديني أو اللاهوتي

15- هناك ثلاثة مواقف مشهورة بشأن هذه القضية في الفكر الديني العالمي المعاصر، وهي: الموقف الحصري أو الإقصائي (Exclusivism or Particularism)، الموقف التقبلي أو الانفتاحي (Inclusivism or Universalism) والموقف التعددي (Pluralism). وهذه المواقف الثلاثة لم تفلح في إقناع المتدينين عموماً، وإن كان الموقف الأول هو السائد لدى أتباع الأديان، لكن الإسلام يقدم حلاً آخر وهو التسامح والتعايش (Tolerance & Co-existence) وهذا الموقف في رأيي هو المقبول عقلاً والممكن واقعاً. انظر:

Harold Coward, *Pluralism in the world religions*(Oxford: One World publications, 2000).

هناك في الجانب الآخر، ذلك الجهل الذي يعيقنا عن الوصول إلى ما وراء الشعارات من أمور لو عرفناها لأدركنا أن التعددية سراب، وأنه وهم يضيّع الفكر الغربي فيه طاقته ويريد أن يأخذ معه في ضياعه المسلمين أيضاً. وهل يليق بأمة أراد الله لها أن تكون قائدة وموجهة أن تقاد بهذه الطريقة؟

وهذا يعني أن هناك ضرورة ملحّة لمعرفة ما يجري في عالم الفكر الديني للآخر معرفة جيدة، ولما يمثل خلفيات توجهاته اللاهوتية في هذا الصدد.وهل هناك غير علم الأديان ليقوم بهذه المهمة على خير وجه؟

و ـ قضية الحوار الديني في العالم المعاصر:

وفي نفس الإطار الذي تحدثنا عنه تأتي قضية الحوار الديني في العالم المعاصر لتؤكد على ضرورة الاهتمام بأديان الآخرين ولتزيد من اقتناع المسلم بضرورة هذا العلم.

لقد كثر الحديث حول "الحوار الديني" وتعددت مواقف الناس حوله إلى درجة نستطيع أن نعتبر "الحوار" موضة العصر في مجال الفكر الإنساني وإن كنا لا نشك في كونه ضرورة اجتماعية وفكرية وثقافية ودينية في كل عصر. ولأن العقل المسلم المعاصر في كثير من مظاهره عقل مريض ومستسلم، وفي حالة فقدان للثقة بالنفس ـ ربما لأجل الإخفاقات المتتالية في العصر الحديث في مقابل الانتصارات المتتالية للعالم الغربي وخاصة في مجال العلم والتكنولوجيا ـ فقد وقع فريسة سهلة لإيحاءات الغرب المعاصر بشأن الحوار وتوجهاته حوله، ناسياً أو جاهلاً أن الحوار عملية حضارية إسلامية امتدت على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان في صورة منظمة تحكمها قواعد واضحة، ومبادئ ثابتة وأصول مستقرة (16).

وعلى كل، يعتبر الحوار في الإسلام فريضة دينية كما أصبحت فريضة عصرية، ولا يمكن القيام بهذه الفريضة كما ينبغي إلا بمعرفة الطرف الآخر في الحوار معرفة جيدة مهما كان مفهومنا للحوار وتقييمنا له، الأمر الذي يتطلب علماً للأديان تاريخاً ونقداً ومقارنةً يستحوذ على اهتماماتنا وتزدهر به جامعاتنا، ويتعمق فيه علماؤنا، وتزخر به ـ على أساس منهجي ـ كتاباتنا.

ومما يؤسف له في هذا الصدد، أن الآخر في العالم المعاصر يعرف عنا أكثر مما نعرفه عن أنفسنا ديناً وثقافة وفكراً وفلسفةً، وحضارة ونظماً، يستوي في ذلك ماضينا وحاضرنا، أما معرفتنا بذلك الآخر الذي نسعى وراءه، أو نشتكي منه أو نعاديه أو نحاوره ـ وكل هذه مواقف نراها في العالم الإسلامي ـ

16- ولعل محمود أيوب من أبرز الأمثلة على هذا. راجع كتابه:

Ayoub,Mahmoud M. *Redemptive Suffering in Islam*(the Hagne mouton, 1980) also see: Ayoub Mahmoud M., "Muslim views of Christianity: some modern examples" in *Islamo-Christiana*, X, (1984) 49-70.

Ayoub Mahmoud, M.,"A Muslim appreciation of Christian holiness" ibid xi (1985) 91-98.

هزيلة ضعيفة، بل في كثير من الأحيان غير صحيحة، وهذا وضع يعجزنا عن التأثير في مجريات الحوار واستغلاله لصالحنا أحسن استغلال،فلا غرابة أن نطالب الناس في العالم الإسلامي بأن يحسّوا إحساساً صادقاً بضرورة الاهتمام بمعرفة الآخر ديناً وثقافة وفكراً وفلسفة قبل أن نعرفه علماً وتقنية، ودولة وقوة، وأن يحسّوا كذلك بضياع المال والجهد في الحوار الذي لم يعرف مفهومه ولم تحدّد مسالكه على نحو علمي متفق عليه بين أطراف الحوار ما لم يتسلحوا بالعلم بمسائل الحوار ومناهجه، وبالمعرفة بأطراف الحوار ورؤاهم.

ز ـ العولمة:

وتأتي مع الذي قلناه إلى الآن وبصورة أكثر قوة قضية العولمة في زيادة اقتناع المسلم المعاصر بأهمية علم الأديان وبضرورة سعيه نحوه بحركة منهجية منظمة. والعولمة واقع العصر، بدأت بأنيابها الاقتصادية وأظافرها السياسية، لكنها مَدَّتها في النهاية إلى الأديان والثقافات.

والعولمة التي اعتبرت في أحد تعاريفها ربطاً للعالم بوسائل الاتصالات الحديثة، هي في الواقع تحوّل هائل في التاريخ الإنساني لها جوانبها الإيجابية، كما أن لها جوانبها السلبية الخطيرة التي تحدث عنها كبار مفكري العصر[17] وعلى الرغم من مظاهرات احتجاج ضدها في عواصم العالم الكبيرة، استقرت ـ قدراً محتوماً ـ في العالم المعاصر. وليس هدفي هنا هو الحديث عن العولمة ولاعن آثارها السلبية المباشرة، إنما عن نتيجة مباشرة غير مقصودة لها ألا وهي ظهور الدين كقوة كبيرة ولاعب أساسي في ميادين السياسة والاقتصاد وغيرهما من ميادين الحياة الاجتماعية المختلفة في مناطق كثيرة من العالم على خلاف كل التوقعات التي تتابع مهندسو الغرب الفكري في الإعلان عنها منذ العصر الحديث [18].

لقد ظهر الدين بقوة في نفس الوقت الذي كشفت فيه العولمة عن أنيابها وأظافرها، وتلزم العولمة الإسلام ـ كما تلزم كل دين على وجه الأرض ـ للعمل في اتجاهين: اتجاه المحافظة على الذات والدفاع عن النفس، واتجاه التعاون مع الأديان الأخرى في مواجهة تحديات العولمة التي تحاول أن تختزل كل شيء في حياة الإنسان في القوة: الاقتصادية أو التكنولوجية أو العسكرية بدون أن تعبأ بالإنسان والأخلاق والروح. وأخضعت العولمة كل شيء للسوق بل إنها جعلت الإنسان نفسه بضاعة. وغضت النظر عن أيّ اعتبار أخلاقي أو إنساني فيما يحدث. فإذا كان اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء مشكلة كبيرة يعانيها العالم فقد جاءت العولمة لتزيد من هذه المشكلة لا لتقللها، لقد ربح البعض منها لكن خسر الكثيرون،

17- انظر على وجه الخصوص ما كتبه الفيلسوف اليهودي المعاصر جوناثان ساكس في كتابه القيم:
Sacks, Jonathan, *The Dignity of Difference*(Continuam, 2003).

18- انظر: Hunt, Stephen J., *Religion In Western Society*(Palgrave 2002), p 2-43.

والنتيجة ضياع الإنسان الذي أحس به صادقاً الغربي قبل الشرقي. وهذا هو الذي أعاد الدين إلى السّاحة، فأصبح من واجب الدين المحافظة على هذا الإنسان وتصحيح مساره وترشيد توجهاته. وهذا أمر يحتاج إلى أن تتكاتف فيه جهود الأديان جميعاً. وهل يمكن أن يتم هذا التعاون المطلوب بإلحاح بين الأديان في إصلاح مسار العولمة أو في حماية الإنسان من عواصفها المدمرة بدون معرفة متبادلة بينها؟

فهذه الحقائق السبعة التي ذكرتها في إيجاز والمرتبط بعضها ببعض يقنع الإنسان المسلم بضرورة وجود علم للأديان في العالم الإسلامي وبأن لهذا العلم دوراً كبيراً في إعادة صياغة العلاقات الإنسانية بين المجتمعات البشرية في عالم القرية الواحدة، وفي تحقيق السلام العالمي والتقدم الإنساني.

لكن المشكلة تكمن في أن هذا الاقتناع الذي نتحدث عنه ونراه نتيجة ضرورية للإسلام كدين عالمي وحضارة قائدة وللواقع العالمي المعاصر لا يحظى بالقبول والانتشار لدى طائفة عريضة من عامة المسلمين، ولدى كثير من مثقفي العالم الإسلامي وأساتذة جامعاته الذين يرون الاشتغال بما يسمى بعلم الأديان أو مقارنة الأديان بدعة وضلالاً، وحجتهم في ذلك أن الدين عند الله الإسلام ولا مجال للمقارنة بين حق نزل من عند الله وباطل أخرجه خيال الإنسان.وإذا كان الله قد أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بآخر رسالاته المهيمنة على ما سبقها جميعاً، وحدثنا في قرآنه عنه فلماذا الاهتمام بدراسته وبتحليل تطوراته؟ وعندما قدمت مشروعاً إلى الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد يتضمن اقتراحاً بتحويل قسم الأديان فيها ـ وهو قسم شاركت في وضع برامجه، ثم قمت بتحديثه وتطويره ـ إلى مركز متميز لدراسة الأديان ويكون الأول من نوعه في العالم الإسلامي كان رد نائب رئيس الجامعة للشؤون الأكاديمية آنذاك وهو الدكتور محمود أحمد غازي بالرفض المتعاطف. لقد كان مقتنعاً بكل ما قلته في تقريري الذي قدمته له ومتعاطفاً، لكنه قال: إن من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، نجاح قسم لمقارنة الأديان في أيّ مجتمع إسلامي. ومع أني لا أشاطره هذا الرأي إلا أن هذا الرأي يعبر عن وضع حقيقي نعانيه في العالم الإسلامي. وهنا يجدر بنا الانتقال إلى الحديث عن عوائق قيام هذا العلم، ولكني أود قبل ذلك أن أناقش بإيجاز شبهة مهمة اعتبر فصل القول فيها أساسية ومقدمة ضرورية للمضي قدماً للحديث عن العوائق.

شبهة وتوضيح:

تكمن الشبهة فيما يراه بعض الباحثين وأساتذة الجامعات من المقتنعين المتحمسين الذين يرى معظمهم أن هذا العلم قائم فعلاً، وأنه علم إسلامي أصيل أسّسه المسلمون تأسيساً بدليل وجود نشاط علمي رائد في مجال الأديان لأسلافنا العلماء.

لكن النظرة المتأنية الفاحصة ترينا أن هذه الجهود لا تدل على وجود هذا العلم بصورة علمية. إن كل ما نراه من نشاط عند التحقيق لا يعدو كونه نشاطاً فردياً، أو اهتماماً شخصياً لا يرتقي إلى مستوى الادعاء بوجود العلم، ولعل هذا الكلام يحتاج إلى شيء من التفصيل.

نشاط علماء المسلمين في مجال الأديان:

لا شك أن لعلماء المسلمين نشاطاً كثيراً وعظيماً ورائداً في بعض الحالات في مجال الأديان. فقد اهتموا بالأديان في وقتٍ غفل العالم كله عنها. وأنتجوا فيها إنتاجاً علميّا غير مسبوق. اعترف بقيمته غير المسلمين من الشرق والغرب قبل المسلمين، وأشادوا بموضوعية أولئك العلماء وإنصافهم وعلمية مناهجهم وتناولاتهم [19]. كل هذا حق لا يمكن إنكاره ولا الغض من قيمته. لكن الذي أعتقد هو أن كل هذه الجهود كانت جهوداً فردية على الرغم من جوانب الإبداع فيها، جهوداً قامت على أساس ميول شخصية ومبادرات فردية اقتضتها الحاجة الآنية أو دفعت إليها الحمية الدينية بدون أن يكون هناك في العالم الإسلامي اعتراف حقيقي بها.

وهذه الجهود التي نتحدث عنها كثيرة تمت عبر القرون الإسلامية الطويلة ولا تزال مستمرة بطريقة ما وكانت في معظمها "جدلية" أكثر منه في "علم الأديان" الذي عرفناه في بداية البحث. فجهود "الجاحظ" و "إمام الحرمين" و"الغزالي" و"القاضي عبدالجبار" و"ابن حزم" و "العامري " و"القرافي" و" الجعفري" و"ابن تيمية" و"ابن القيم" و"الأشعري" و"الوراق" و"الأمرتسري" و"الكيرانوي" وغيرهم[20] كثير تدخل في هذا الميدان، ميدان الجدل الديني من أوسع أبوابه ولا يمكن لأحد الغض من عمق هذه الأعمال وقيمتها العلمية ورصانتها المنهجية، لكنها لا تتعدى "إطار الجدل الديني" وتعتبر من هذه الناحية جزءاً لا يتجزأ من علم الكلام، ووسيلة مهمة من وسائل تحقيق أحد أهم أهدافه وهو "الدفاع عن الإسلام". والرد على مخالفيه.

أما ما يمكن أن نجده في التراث التاريخي للمسلمين مثل كتاب الطبري والمسعودي والمقدسي والكرديزي وغيرهم فلا تعدو أن تكون أكثر من سجل تاريخي وصفي غير منظم بدون أن يكون هناك وعي بعلم الأديان. وإن كان هذا التراث لا يمكن إهماله في أي حال من الأحوال عند التأريخ لهذا العلم أو عند بيان جهود المسلمين في هذا الصدد.

19- انظر: Sharpe, Eric J, op. cit.

20- لقد ظهرت في العقود الأخيرة دراسات علمية حول كل واحدٍ من هؤلاء الأعلام إما في صورة دراسات تحقيقية لكتاباتهم، أو دراسات شاملة مستقلة مقارنة لجهودهم.

أما تلك الجهود المتميزة التي يمكن أن تصنف في مجال علم الأديان بكل موضوعية ومنهجية فهي قليلة جداً، وأعظمها في رأيي كتاب البيروني، ويليها **الملل والنحل** للشهرستاني، ويأتي بعدهما ـ وأنا أتحدث من خلال ما يتوفر لدينا الآن من هذا التراث ـ رسالة **بيان الأديان** الذي ألفه باللغة الفارسية أبو المعاني الحسيني العلوي، وكانت هذه الجهود إما اهتمامات شخصية كما هو عند أبي المعالي والشهرستاني أو تلاقي الميل الشخصي برغبات من لا يردّ طلبه كما هو في حالة البيروني[21].

وهذه الأعمال تدخل ـ بحق ـ فيما نعتبره علم الأديان بكل المقاييس، وتتميز ـ وخاصة أعمال الشهرستاني والبيروني الكثيرة ـ بخصائص منهجية وموضوعية مميزة ومعلومات تاريخية نادرة، لكنها ظلت أعمالاً لم تتابع بالنقد والتطوير والإضافة. ولم تسهم هذه الأعمال الرائدة ـ وقد يضاف إليها عمل أبي الحسن العامري وابن حزم والغزالي بشيء من التجوز ـ في توليد هذا العلم وتقييد قواعده وتشييد أسسه والاتفاق على مناهجه بل ـ وكما ألمحت سابقاً ـ لم يتفق حتى على شرعيته، وهذا أمر غريب.

و لم يعرف العالم الإسلامي إلى يومنا هذا تعريفاً لهذا العلم أو تحديداً لموضوعه أو تمييزاً لمسائله أو رسماً لأهدافه ومناهجه. وهذا على خلاف ما درج عليه المسلمون في مجال العلوم على مر العصور، حيث إنهم لم يشتغلوا في أيّ علم بدون تحديد ماهيته وموضوعه وأهدافه ومصادره. ومما اشتهر عن المسلمين قولهم:

إن مبادي كل فن عشرة ... الحد والموضوع ثم الثمرة
وفضله ونسبة والواضع ... والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى ... ومن درى الجميع حاز الشرفا[22]

ولا تزال هذه الأمور العشرة يهتم بها طلاب العلم في المدارس الإسلامية في كثير من المجتمعات الإسلامية في آسيا وإفريقيا عند شروعهم في دراسة أي علم. وإذا جئنا إلى علم الأديان على فرض وجوده

21- انظر مقدمة البيروني لكتابه: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، حيث يتحدث عن دوافع تأليفه لهذا الكتاب.

22- لقد عبّر صاحب **إضاءة الدجنة** أحمد المقري المالكي الأشعري عن هذا بقوله:

من رام فناً فليقدم أولا ... علماً بحده وموضوع تلا
وواضع ونسبة وما استمد ... منه وفضله وحكم يعتمد
اسم وما أفاد والمسائل ... فتلك عشر للمنى وسائل

إضاء الدجنة في اعتقاد أهل السنة، المكتبة العصرية، بيروت، 2003م، ص 14.

لدينا وحاولنا أن نعرف له موقعاً في خريطة العلوم الإسلامية من خلال هذه المبادئ العشرة أو بعضها فإننا لن نجدها. نعم ربما نجد ذكراً لما اشتهر باسم **الملل والنحل** لكنه ـ بغض النظر عن كونه مرادفاً في التسمية "لعلم الأديان" ـ ليس إلا "الجدل الديني" الذي تمثل في جل أعمال علمائنا بقوة.

نعم إن الاتجاه النقدي في دراسة الأديان الذي يأتي ضمن الجدل الديني ليس بعيداً عن المجال الذي نحن بصدده وخاصة عندما نكون أمام نماذج من أمثال ابن حزم والقاضي والغزالي وإمام الحرمين والعامري ورحمة الله الكيرانوي ومحمد فضل الرحمن الأنصاري، وبعض هذه الأعمال قد يدخل فيما تطور اليوم لدى الغرب باسم Biblical Criticism[23] نقد الكتاب المقدس. وسواء كان هذا أو ذاك أو لم يكن كليهما فإن من الممكن أن يمثل هذا الاتجاه النقدي بعداً واحداً من أبعاد هذا العلم وخاصة أنه ليس من المحتم علمياً أن يتصور علم الأديان بنفس الطريقة التي يتصوره بها علماء الغرب. لكن المهم أن يجتمع المسلمون على تصور معين ويتفقوا على أصوله وقواعده، وأن يأتي هذا التوجه النقدي بناء على معرفة موضوعية حقيقية بما يتوجهون إليه بالنقد والتحليل. وهذا الاتفاق على التصور هو ما لم يتم أبداً حتى يصح لنا القول بوجود هذا العلم وجوداً حقيقياً.

وأنتهي من هذا كله إلى القول بأن علم الأديان بالمعنى الذي حددناه ويقتضيه العقل والمنطق وقبلهما ومعهما الإسلام نفسه لم يوجد في العالم الإسلامي كعلم له أصوله المحددة، وقواعده المعروفة، ومناهجه المعمول بها وغاياته الواضحة.

إننا اليوم نعتمد على الغرب تماماً ـ وبصورة كلية ـ في فهم أديان العالم، بل في فهم ديننا أيضاً في بعض الأحيان. وهذا دليل آخر واقعي على عدم وجود هذا العلم ـ علم الأديان ـ لدينا، وعلى أن الجدل الديني المستمر إلى يومنا هذا ليس بديلاً لعلم الأديان.لا توجد لدينا اليوم موسوعة واحدة للأديان العالمية والمذاهب المنقرضة والموجودة في أرجاء المعمورة قمنا نحن بإعدادها ويمكن الاعتماد عليها، وتحظى باحترام الأوساط العلمية في الشرق والغرب باستثناء ما أنجزه العالم الكبير عبد الوهاب المسيري رحمه الله، وسيأتي الحديث عنه فيما بعد. وما بدأ يظهر في الآونة الأخيرة باسم موسوعات الأديان في عالم الإسلام مثل الذي أصدره دار الكتاب العربي أو دار البشائر مؤخراً أو الذي أصدرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي منذ فترة ليست بالقصيرة لا يستحق أن يشار إليه في هذا الصدد، كتاب غير متخصصين،

23- انظر لعرض موجز ممتع لنشأة "نقد الكتاب المقدس" وتطوره:

Luis Alonso Schokel SJ,*Understanding Biblical criticism*trans. Peter McCord SJ, (London: Burns & Oates/Herder and Herder, 1968).

ومعلومات مغلوطة، ومصادر ومراجع لا قيمة لها في الغالب وسطحية مرفوضة، هي بعض خصائص هذه التي أصدرتها الندوة أو دار الكتاب العربي أو دار البشائر.

إن من الواضح أنه ليس لنا في مجال الفكر الديني العالمي، ومجال الأديان والفلسفات والمذاهب الدينية أي إنتاج يغنينا عن الآخرين وخاصة الغرب أو يساوينا بهم أو يقربنا إليهم أو منهم، ولازلنا ـ بكل فخر ـ مقلدين للغرب في هذا المجال، ومستهلكين فيه غير منتجين، على الرغم من أننا نمثل ربع سكان الأرض، ونتحدث كثيراً عن الصحوة والنهضة.

إذا تأملنا ما ذكرناه إلى الآن وخاصة في بداية كلامنا من أمور، ونظرنا في واقع عالمنا المعاصر، تبعيتنا الراهنة حتى في مجال الفكر، فإننا نتأكد من ضرورة ظهور هذا العلم لدينا اليوم وبقوة، فلماذا لا يظهر هذا العلم؟ وما الذي يمنع ظهوره؟ وخاصة إنه لا يقتضي تقدماً تكنولوجياً، أو قوة عسكرية أو قراراً سياسياً؟ تلك المبررات التي يحلو لنا دائماً الارتماء في أحضانها في تبرير عقمنا العلمي، وعجزنا الإبداعي وتخلفنا الحضاري.

عوائق قيام علم الأديان في العالم الإسلامي:

يرجع عدم قيام هذا العلم في العالم الإسلامي في تصوري إلى عدة عوامل أهمها:

أولاً: عدم وجود رغبة حقيقية لدى قاعدة عريضة من الناس، بل لدى بعض الخواص المحسوبين على الفكر والعلم، وهذا في الحقيقة هو العائق الأكبر. وهذا عائق يسببه:

(أ) عدم فهم الواقع.

(ب) عدم فهم طبيعة الرسالة الإسلامية.

(ج) الانغلاق وضيق الأفق.

ولسان الحال عند هذه القاعدة العريضة يقول:

لماذا ندرس الأديان الأخرى؟ وربنا تبارك وتعالى قال في محكم تنزيله ﴿**إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ**﴾ (سورة آل عمران، الآية: 19) وقال: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاَمِ دِيْنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِيْ الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ**﴾ (سورة آل عمران، الآية: 85). وليس من حسن إسلام المسلم أن يضيع وقته في أباطيل وخرافات يدرسها ويحللها ويحاول أن يتعرف على أصولها ومصادرها وأسباب جاذبيتها وتأثيرها. إنه يخاف عليه في هذه الحالة أن يكون ممن يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِيْنَ أَعْمَالًا اَلَّذِيْنَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُوْنَ صُنْعًا**﴾ (سورة الكهف، الآيتان: 103و104).

وأيّ مقارنة بين الحق والباطل؟ بين الوحي الإلهي الصادق والأساطير الكاذبة؟ وكيف توضع المسيحية الباطلة مثلاً مع الإسلام الحنيف في كفة متساوية لأجل المقارنة العلمية؟ وكيف توضع الوثنية الهندوسية أو اللاأدرية البوذية أو الغنوصية التاوية مع الإسلام في نقائه وصفاء توحيده وإحكام أركانه بحجة ضرورة فهم الآخر؟ ثم ما الذي يلجئنا إلى دراسة هذه الأديان والكتابة عنها، وترجمة كتبها وشرح نظرياتها ما دام القرآن الكريم حكى لنا عن أهلها عقائدهم ومذاهبهم؟ وهل هناك مزيد على ما قاله القرآن الكريم؟ أليس في هذا اتهاماً للقرآن الكريم نفسه الذي قال الله فيه ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُوْنَ** ﴾ (سورة الأنعام، الآية: 38). وهكذا، عندما نفحص في أسباب الرفض ووجوه الإعراض والاعتراض نجد أن القرآن الكريم الذي يمثل الدافع الأول لقيام هذا العلم هو المعتمد الأصيل الذي يستند إليه أولئك الذين لا يرون لهذا العلم دوراً، أو ضرورة أو قيمة، لأن القرآن هو الذي فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم إلى آخر ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم[24].

ولست في حاجة إلى الإشارة إلى أن التدين المغشوش والإيمان المقلد يضرّ بالإسلام والقرآن أكثر مما يضرّهما الإلحاد. ولا شك أن هذا الموقف القرآني المزعوم الرافض لدى هؤلاء وهم كثيرون حتى في أوساط أساتذة الجامعات ـ وخاصة ممن يشتغل في التخصصات الإسلامية من تفسير وحديث وفقه وعقيدة ـ يقوم على جهل بالواقع، وعدم فهم لطبيعة الرسالة الإسلامية وعدم إدراك لمنهج القرآن وتقريراته التي أشرنا إلى شيء منها في بداية البحث، تغذيها ظاهرة الانغلاق وضيق الأفق التي بدأت تغزو العقل المسلم في كثير من الأوساط الجامعية تحت تأثير ما يسمى "بالسلفية" من ناحية، كما تغذيها السطحية التي نراها تتغلغل في معظم مجالات المعرفة الدينية تحت تأثير "الحركات الإسلامية المعاصرة" من ناحية أخرى.

والتغلب على هذا العائق لا يكون في تصوري بالانشغال بالرد على أصحاب هذه المواقف، إنما بالعمل الجاد في إقامة هذا العلم على أسس علمية مستمدة من مصادر الإسلام الأساسية والأصول الثقافية المنبثقة منها والمعتمدة عليها، والمبادئ العقلية المستند إليها والخبرة البشرية المنسجمة معها حتى إذا ما ازدهر العلم وأينع ثماره فسوف لن نجد لهذا الموقف الرافض موطئ قدم أو محطّ نفوذ في عقول طلاب العلم ورائدي الحقيقة والساعين وراء التدبر وفتح مغاليق القلوب. وسيحس الناس عند ذاك على أرض الواقع بفائدة هذا العلم العظيمة في خدمة تعاليم القرآن الكريم نفسه وتطبيق توجيهاته الإيمانية والمعرفية والإنسانية.

24- رواه الدارمي في **مسنده**، والترمذي في **جامعه** (تخريج).

ثانياً: غياب الحرية الأكاديمية في بلاد المسلمين:

إذا كان هناك من استطاع تخطي العائق الأول ألا وهو عدم وجود الرغبة، وتوصل إلى اقتناع حقيقي بضرورة قيام هذا العلم في العالم الإسلامي، فإنه سيجد أمامه عائقاً من نوع آخر يدفن حماسه لحظة ميلاده، ويعوق حركته عند أول انطلاقتها، ويشل من قدرته نحو الابتكار والإبداع. ألا وهو غياب الحرية العلمية في كثير من الجامعات في العالم الإسلامي وبخاصة تلك التي تسمى بالجامعات الإسلامية، وبالأخص تلك التي تتبنّى ما يسمّى بالسلفية عقيدة والوهابية مذهباً.

إن مما يؤسف له، أن بعض كبار أساتذة الجامعات أنفسهم ممن يؤمن بالحرية العلمية ويتحدث كثيراً عن الإبداع العلمي والانطلاق وتشجيع البحوث في جامعات العالم الإسلامي يقدمون نماذج سيئة للغاية بسبب غياب أو ندرة أخلاق العلم لديهم وفي مواقفهم.

وغياب الحرية العلمية في جامعات العالم الإسلامي وخاصة الإسلامية منها يتمثل في صور مختلفة:

أولها: غياب الحرية البحثية على مستوى الجامعات، وعدم إيمان كثيرين بها وفق المعايير العلمية. فهناك جامعات في العالم الإسلامي لا يستطيع الباحث فيها أن يجري بحوثاً علمية موضوعية في مجالات العقيدة والفلسفة والأديان قائمة على المصادر الأولى والمراجع الحقيقية في موضوعية وإنصاف. ولا يستطيع أن يتحدى الشائع من الآراء في تلك الأوساط مهما كانت قوة دليله وقيمة مصادره؟ فالبحث في الأديان في هذه الجامعات أو المقارنة بينها عبارة عن انتقاء المظاهر السلبية أو التقاط نقاط الضعف لدى الأديان غير الإسلام والانقضاض عليها بدون إعطاء فرصة لصاحب الدين لكي يعرض رأيه، ويقدم تفسيره ويدافع عن وجهة نظره. وتأثر بهذا المنهج في البحث كثير من الأساتذة الذين قد يعيبون على مثل هذه الجامعات ضيق الأفق، ومن النادر ـ نتيجة لهذا ـ أن نجد فيما أنتجه العالم الإسلامي المعاصر كتاباً موضوعياً في الأديان العالمية، ومن الموضوعات المفضلة في الحديث عن اليهودية مثلاً لدى كثير من الكتاب المسلمين أخلاق اليهود المنحطة وعقدتهم النفسية بدون مراعاة لإطاراتها التاريخية مثلاً. وإذا وجدنا بعض الكتب الوصفية المقبولة مثل كتب العالم الجليل الشيخ محمد أبي زهرة فإنها تتحدث عن تاريخ قديم لهذه الأديان وتغفل عن الجديد فيها. ولا لوم على الشيخ لأنه كتب ما كتب وفق خطة معينة وفّاها حقها وفي ظرف زمني معين استجاب لمطالبه. إنما اللوم على أولئك الذين يستخدمون تلك الكتب للاستجابة لمقتضيات مرحلة زمنية مختلفة.

أما الصورة الثانية فهي كون الجامعات في حد ذاتها تتصف بالانفتاح وتشجيع الإبداع والبحث العلمي، وتؤمن بحرية الفكر والرأي، لكنها لم تستطع أن توفر تلك الجماعة الأكاديمية التي تستطيع أن تحقق هذا التوجه على أرض الواقع، فغياب الهيئة العلمية المشرفة على التعليم المتصفة بالانفتاح والمؤمنة بحرية البحث والرأي أفشل الخطط الطموحة لمثل هذه الجامعات، وأبطأ من نجاحها إلى حد كبير. يمكن في هذا الصدد أن أضرب المثل بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، فهي جامعة تتسم بحرية أكاديمية منقطعة النظير بالمقارنة مع كثير من مثيلاتها في العالم العربي، لكنها بسبب اعتمادها كثيراً على المعونات الخارجية لم تكن تملك حق اختيار هيئة تدريسها مما أدى إلى تجمع كثير من الأساتذة ممن لا يؤمن بالانفتاح، ولا يؤمن بحرية الرأي والبحث العلمي ويمثلون قوة ضغط نفسي وأكاديمي داخل الجامعة تعيق التقدم العلمي والإبداع الفكري في مجال العقيدة والأديان.

وعلى الرغم من أن هذه الجامعة تحتوي على قسم لمقارنة الأديان يمكن أن يقارن بكثير من الأقسام المتطورة في العالم من حيث البنية المنهجية إلا أن هذا القسم لم يحقق ما كان يصبو إليه من تقدم في مجال هيئة التدريس أو المكتبة أو التيسيرات البحثية الأخرى بسبب هذا العامل الذي له أمثلة أخرى في جامعات ومعاهد كثيرة في العالم الإسلامي.

وهناك صورة ثالثة لهذا العامل، وتتمثل في تغييب الحرية، فقد تكون الجامعة في حد ذاتها منفتحة ومحترمة للتقاليد العلمية، ويسع صدرها للاجتهادات والآراء، وتسمح بتناول الأفكار والمذاهب ومناقشتها وفق ما يقتضيه المنهج العلمي، لكن المشكلة تكمن في كبار أعضاء الهيئة العلمية بالجامعة الذين لا يسمحون لأحد من مساويهم أو ممن دونهم بالتفوق أو الظهور أو الإبداع. فإذا نشط أحد الباحثين في ميدان البحث العلمي بما لا يمكن أن يقوم به هو أو يعجز عن الإتيان بمثله فإنه يستخدم أقدميته ويستغل موقعه كأستاذ أو كرئيس للقسم سيفاً مسلطاً على العباد، ويقف بهذه المواقف الاستبدادية البعيدة عن التقاليد العلمية، وأخلاقيات المهنة عقبة في سبيل نهضة علمية حقيقية في مجاله، وهذا أمر شائع في كثير من جامعات العالم العربي، وهذه الصورة فيها استغلال واستكبار واستبداد وكل ما هو مخالف لأخلاق العلم والعلماء من ناحية، وإضرار بالعلم وإعاقة لنهضته من ناحية أخرى. وهذه الصورة ـ طبعاً ـ مردها العامل النفسي ـ أو قل أمراض النفس وأهواؤها التي لم يتطهر منها أولئك الأساتذة.

ثالثاً: عدم تشجيع المشروعات البحثية في مجال الأديان في جامعات العالم الإسلامي.

المفروض في الجامعات أنها تمثل تجمع النخبة الموجهة لمسيرة الفكر في المجتمع وما يقتضيه من

نشاط بحثي علمي يعايش الواقع مسايرة أو تصحيحاً أو تعديلاً أو تطويراً. والجامعات في العالم الإسلامي تعيش حالة من التبعية المطلقة للغير، والاستهلاك المفرط لما ينتجه هذا الغير بدون حرص يذكر على الإنتاج الفكري والإبداع العلمي الذي يدل على وعي بالذات والتاريخ والتراث والعصر. وإذا كان المثل اللاتيني يقول: "إن فساد الأحسن هو الأسوأ" وهو قريب من المثل العربي المشهور "إن السمكة تبدأ في التعفن من رأسها" فإنه يجسد حالة كثير من الجامعات وغالبية المفكرين في العالم الإسلامي في الأعم الأغلب.

وحتى إذا وجدنا في الآونة الأخيرة سعياً حثيثاً نحو البحث العلمي تشجيعاً وتمويلاً في بعض جامعات العالم الإسلامي ـ وجامعات الخليج الفتية والجامعات الماليزية في مقدمتها ـ فإن هذا مقيد ـ في الغالب ـ بالمجالات الطبيعية والعملية التجريبية ذات العوائد المادية المباشرة. ولعل الأمر يحتاج إلى وقت طويل لتشعر هذه الجامعات وأولو الأمر فيها بأن مجال الأديان مثل غيره من مجالات الفكر الديني والفلسفي لا يقل في أهميته للإنسان والمجتمعات الإنسانية عن أيّ مجال علمي آخر.

ومع أن الأمم المتقدمة مادياً، والمهيمنة اقتصادياً، والغالبة سياسياً والطاغية عسكرياً تقدم أسطع الأدلة على صدق ما أقول بدليل ما تنفقه هذه الدول على مثل هذه المجالات لم ندرك نحن بعد ـ فيما يبدو ـ أن المعرفة في ذاتها قوة. وأن الأمم التي قهرتنا ولا تزال تقهرنا فعلت ذلك ولا تزال بالعلم أولاً.

فإذا كانت النظرة المادية إلى العلم التي نجدها سائدة في العالم الإسلامي من سلبيات ما ورثناه من الغرب الحديث فإننا ننسى أن هذه النظرة نفسها هي التي دفعت تلك الأمم الغربية القوية مادياً إلى تبني هذه العلوم التي يصنفها تحت الإنسانيات والاجتماعيات والسعي على امتلاك مفاتيحها ومناهجها ومناظيرها.

وعلى الرغم مما نراه في قطر ـ ممثلة في جامعة قطر ومؤسسة قطر ـ من اهتمام كبير بالبحث العلمي وتشجيع متميز للإبداع والابتكار في مجالات العلوم المختلفة بما فيها الإنسانيات والاجتماعيات فإن حظ الأديان لا يزال ضعيفاً بل يكاد يكون معدوماً والسبب في هذا يعود في رأيي إلى الباحثين أنفسهم الذين لم يحرصوا على الاستفادة من الفرص المتاحة أو لم يستطيعوا إقناع المسئولين بمشروعاتهم البحثية.

إن مجتمعاً تزدهر فيه العلوم الطبيعية والتطبيقية ولا يوازيها ازدهار مماثل في العلوم الإنسانية والاجتماعية وخاصة فيما يتصل بالأديان والعقائد والشرائع التي تلعب الدور الجوهري في تشكيل النظم، وتوجيه الأنماط السلوكية والاتجاهات الفكرية ـ وهو دور أثبته التاريخ كما أثبته الواقع ـ لا يمكن أن يحلم بدور التوجيه والقيادة، لأن الأديان هي التي تحدد للمؤمنين بها رؤيتهم الكونية التي توجههم وتقودهم.

والبحث العلمي الجاد في الأديان،قديمها وحديثها، في مصادرها العقدية وأصولها التاريخية، ومظاهرها الاجتماعية والثقافية، ونماذجها السلوكية، ومذاهبها الفكرية، ومدارسها الروحية، وتجلياتها الأدبية والفنية، وإبداعاتها العلمية، ورؤاها المتجددة لا يمكن أن ينهض به الباحثون والعلماء على أسس قويمة، ومناهج علمية مقبولة بدون تبني المؤسسات العلمية والمعاهد الفكرية في عالمنا الإسلامي علم الأديان، وتوفيرها التشجيع اللازم والتمويل المناسب.

رابعاً: فقر المكتبات في المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي:

وهذا عائق آخر، مما يعوق قيام علم الأديان في العالم الإسلامي قياماً ناجحاً. والحديث عن أهمية المكتبات ووجوب ثرائها ليس من نافلة الأحاديث، ولا من هوامش الأمور، يدركه كل من يعمل في مجال البحث العلمي والسلك الأكاديمي كما يدركه كل من يهتم بنفسه وبغيره ذاتاً وتاريخاً، وتفاعلاً وتعايشاً. ومع أن الجامعات كلها تنفق أموالاً طائلة لأجل مكتباتها تحسيناً وتقوية وتطويراً لإيمانها بأهميتها وحرصها على التقدم العلمي وأملها في الإبداع، فإن نصيب مجال الأديان الذي نحن بصدده في هذه الميزانية ضئيل لا يذكر.

وإذا كانت جامعات الشرق الأوسط ـ من بين جامعات العالم الإسلامي ـ بدأت تسعى سعيها الحثيث في تطوير مكتباتها بحيث تلبي حاجات الباحثين والعلماء بصورة مناسبة، فإن مكتبة الدير الدومينيكاني في القاهرة لا تزال المكتبة الرئيسة التي تسعف الباحثين في منطقة الشرق الأوسط في مجال الأديان، وفي مجال الفكر الفلسفي الديني.

والمسئولية هنا لا تقع في غالب الأحيان على الجامعات كإدارة، إنما تقع ـ في رأيي ـ على عاتق المجتمع الأكاديمي فيها الذي لا يتنبه إلى هذا الجانب وأهميته، فلا يوصي القائمين على المكتبات بمصادر هذا المجال ومراجعه.

ولعل من أفضل المكتبات في جامعات العالم الإسلامي في مجال الأديان مكتبة مجمع البحوث الإسلامية في الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد بباكستان، لكن الثراء الذي تتميز به هذه المكتبة في هذا المجال لا يعود إلى فلسفة ثابتة بقدر ما يعود إلى المبادرة الشخصية للذي يتولى مسئولية هذا المجمع في تلك الجامعة، ويمكن الإشارة بهذا الصدد إلى الأستاذ الدكتور فضل الرحمن المدير الأسبق والأستاذ الدكتور ظفر إسحاق أنصاري المدير الحالي، فقد حرص كلاهما على هذا الجانب الذي لم يهتم به من قبل اهتماماً يليق به بدون أن يغمطا حق الجوانب الأخرى، فهذان الرجلان من أكثر العلماء معرفة بالوضع الراهن للجامعات الإسلامية ـ عربية كانت أوغير عربية ـ ومن أكثرهم اتصالاً بالدوائر الأكاديمية العالمية في أمريكا وأوروبا، ومن أعمقهم وقوفاً على التطورات الحادثة في مجال الفكر الديني في العالم بشرقه وغربه.

وإذا كان هناك من ضعف في هذه المكتبة في مجال الأديان في عصر هذين الرجلين فإن هذا راجع أساساً إلى قلة الإمكانات المادية وضعف الموارد المالية، ومع ذلك فقد قام الرجلان بجهدهما وقدما للباحثين في هذا المجال ما لا يجدونه في كثير من جامعات العالم الإسلامي.

فالأمر ـ إذن ـ يحتاج إلى يقظة أكاديمية واعية للنهوض بمكتبات جامعات العالم الإسلامي وإنشاء أو تحديث قاعدة المعلومات المتعلقة بالأديان فيها لتكون في عون الباحثين في مجال الأديان والحريصين على الإبداع فيه.ولابد للجامعات أن تستفيد من إنجازات ثورة الاتصالات والمعلومات في مجال المكتبات الإلكترونية كما أنه لابد للباحثين أن يؤهلوا أنفسهم للاستفادة منها.

خامساً: اللغات:

أما العائق الخامس الكبير فهو الجهل السائد في أوساط الباحثين والأكاديميين في العالم الإسلامي باللغات العالمية وباللغات الأصيلة للأديان العالمية وهو وضع يجعل النشاط البحثي في مجال الأديان والفلسفات ـ حتى عند كثير من أولئك القلة المهتمة بالأديان في العالم الإسلامي المعاصر ـ هزيلاً وتابعاً ومتخلفاً.

والبحث في الأديان يتطلب نوعين من اللغات: أولهما اللغات القديمة التي بها كتبت مصادر الأديان الأساسية، وثانيهما اللغات العالمية الحديثة التي تظهر فيها التطورات الحادثة في تلك الأديان والاجتهادات المتجددة والاتجاهات المذهبية المختلفة فيها. ولا يستغني الباحث عن كلا النوعين. فإذا كانت المصادر يمكن أن يعتمد الباحث عليها في ترجماتها المشهورة والدقيقة إلى درجة كبيرة مادام لا ينشغل بدراسات نصية أو بالنقد النّصي، وهذا هو الرأي الذي عبر عنه عالم الأديان الإنجليزي الكبير "نينيان سمارت (Ninian Smart 2000)" في كتابه الصغير حجماً والمهم محتوىً المسمى **علم الأديان واجتماعية المعرفة**(Science of Religion and Sociology of Knowledge) وأظنه رأياً حكيماً وبراجماتياً، فإنه لا مناص من إحدى اللغات العالمية الحية على الأقل إذا أريد لدراساتنا أن تكون متصلة بالعصر، وقريبة من التطورات، ومتفاعلة مع الأوضاع، ومشاركة في الانفتاح والإبداع، إلا أنني أعود فأقول لا يتصور علمٌ للأديان في العالم الإسلامي قائم على رجليه ومنطلق على الأساس العلمي الصحيح ما لم يكن هناك اهتمام باللغات الأصلية للأديان، وبخاصة بعد أن لا حظنا ترجمات علماء الغرب للمصادر المقدسة للأديان المختلفة تمتلئ بكثير من المشكلات التي من أبرزها: عدم فهم المصطلحات في أطرها الصحيحة ومدلولاتها الثقافية المعينة.

وأتحدث هنا من خلال معايشة مباشرة لما ينشر عن الهندوسية والبوذية، ومن خلال ما لاحظه بعض تلاميذي عندما كلفتهم بترجمة بعض النصوص الصينية المقدسة للديانة الكونفوشيتيه والطاوية[25] وبالتحديد كتاب **المعرفة الكبرى** في الديانة الكونفوشيتية و **دوده جن** في الطاوية. على أنه حدث تطور ملحوظ في هذا الجانب في العالم الغربي في الآونة الأخيرة كما يظهر من الترجمات الغربية الأكثر حداثة للنصوص الدينية.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن هناك بوادر طيبة في هذا المجال وخاصة فيما يخص اللغة العبرية والفارسية، ويمكن أن تكون هناك إنجازات سريعة فيما يخص الآرامية لعلماء المسلمين من الشام على وجه الخصوص، كما يمكن أن يلعب الباحثون من جنوب آسيا فيما يخص السنسكريتية والبالية دوراً جيداً. ولكي يتم هذا فإن من الضروري أن تكون هناك اهتمامات مؤسسية منظمة.

أما فيما يخص اللغات العالمية الحديثة فإننا في حاجة ملحة إلى أن يتسلح بها الباحثون وخاصة من العالم العربي حتى يتمكنوا من الرصد والمتابعة والمشاركة.

إن هزالة كثير مما ينشر في مجال الأديان في العالم الإسلامي ـ وخاصة العربي منه ـ وسطحية معالجاته وتفاهة معلوماته مردّها ـ بالإضافة إلى بعض العوامل السابقة ـ الجهل باللغات وبالتالي عدم القدرة على المتابعة. وهذا ما جعل كثيراً من الدراسات تعيش حتى في أيامنا هذه على تراث الشهرستاني وابن حزم، وتعالج نظريات ومذاهب تجاوز بعضها الزمن، وتهمل اتجاهات في التأصيل والتفسير جاء ت بها متغيرات الفكر ومتطلبات الواقع في العصر الحديث. فلا غرابة في أن يتجاهل الفكر العالمي هذه الدراسات وفي أن لا يكون لها أيّ اعتبار، وإن أشير إليها فإنما ذلك للدلالة على سطحيتها وتفاهتها[26].

والحقيقة أن هذه الكتابات السطحية الزائفة تكدس المكتبة الإسلامية بكتب ومقالات لا تضيف جديداً في المعرفة أو المنهج بل تكرر السّذاجة، وتقدم مزيداً من البراهين على فقر الفكر

25- انظر: زهرة الدين طيب إدريس مايشوبي، **كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفوشيوسية**، ترجمة وتعليق ودراسة مقارنة بالإسلام، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في مقارنة الأديان إلى قسم مقارنة الأديان بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، 1424هـ – 2003م. وكذلك أيوب نور الحق دين شي رين، **داوده جين**، ترجمة ونشر ودراسة مقارنة بالإسلام، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في مقارنة الأديان إلى قسم مقارنة الأديان بالجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، 2003م.

26- انظر في هذا القائمة التي أوردها جاكس واردنبرج في كتابه:
Muslim Perception of Other Religions: A Historical Survey(Oxford University Press 1999), p 309-340.

الإسلامي المعاصر في هذا المجال، وتضلل عقول الجماهير في العالم الإسلامي بإظهار المشاكل الميتة قضايا حية، وإبراز الهوامش على أنها جواهر، تماماً كما يفعل المسيطرون على أجهزة الإعلام وصياغة المعلومات في عصر ثورة الاتصالات لخدمة أهداف معينة. إن في هذا تغييباً للوعي وتمييعاً للعقل وخيانة للعلم وركوناً إلى الجهل.

سادساً: عدم وجود منبر للمشتغلين بالأديان:

أما العائق السادس فيتمثل في عدم وجود منبر واحد على الأقل في صورة مؤسسة و دورية تابعة لها يجمع المشتغلين بالأديان والمهتمين بها، وعلى الرغم من كل ما قلناه إلى الآن من عوائق قيام هذا العلم، فإننا لا نستطيع أن ننكر وجود شخصيات وإن تكن قليلة تهتم بالأديان وتشتغل بالبحث فيها وعنها في العالم الإسلامي، ولأول مرة في العصر الحديث تم في مجال الأديان إنجاز موسوعة علمية عن اليهود واليهودية والصهيونية، فقد قام بهذه المهمة العلمية العظيمة الأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب المسيري رحمه الله. وقد نشط في مصر على يد علماء اللغات الشرقية اهتمام خاص باليهودية وأحب أن أشير هنا بالتحديد إلى أعمال الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن، وكتابات الأستاذ الدكتور أحمد عثمان، وقبلها كتابات العلامة الأستاذ الدكتور حسن ظاظا، وهناك كتابات ممتازة في الأديان في أماكن متفرقة من العالم، من أهمها وأعمقها وأبرزها أعمال سيد حسين نصر غير المسبوقة في المنهج أو المضمون[27].

وهناك أجيال معاصرة من العلماء الباحثين المهتمين بالمجال ولهم جهودهم فيه من أمثال محمد نقيب العطاس والدكتور إسماعيل الفاروقي، مزمل صديقي، عبد المجيد شرفي، ومحمد محمد حسانين، ومحمد عبدالله الشرقاوي. إضافة إلى مجموعة من شباب الباحثين المتحمسين مثل أفور الدين من سريلانكا، ومحمد مدثر علي، ومحمد أكرم من باكستان، وزهرة الدين، ومحمد أيوب من الصين، ومحمد فاروق ترزيتش من البوسنة وآخرون كثيرون في جميع أنحاء المعمورة[28].

لكن المشكلة أن هؤلاء المشتغلين بالأديان ليس بينهم تواصل. وازدهار أيّ علم يستلزم كما نعلم جميعاً التواصل بين المهتمين به والمشتغلين فيه. وحسم كثير من القضايا المتعلقة بالمنهج، والتعرف على ما يقوم به الأقران بالإضافة إلى حركة نقد علمي قوية.

27- من أبرز وأهم كتب سيد حسين، انظر في هذا المجال:

Nasr S.H., *Knowledge and the Sacred*(Edinburgh University Press, 1981).
Nasr, S.H., *The Need for a Sacred Science*(Curzon press, 1993).
Nasr, S.H., *Religion and the Order Of Nature*(Lahore: Suhail Academy, 2004).

28- فيما يلي إشارة إلى بعض أعمال هؤلاء.

وهذا لا يمكن أن يتأتى بدون أن يكون هناك منبر يتيح الفرصة لهؤلاء للالتقاء والتواصل، فلا أقل من دورية خاصة تسمح لهؤلاء المشتغلين بالأديان بمناقشة أفكارهم وأطروحاتهم ورؤاهم ومناظيرهم. والغريب أنه على الرغم من مئات المجلات والدوريات العلمية التي تصدر في العالم الإسلامي لا توجد من بينها دورية واحدة في أمهات اللغات الإسلامية في مجال الأديان أقصد الدراسات العلمية للأديان في حين أننا نجد في الغرب ما يقرب من ثلاثمائة مجلة دولية محكمة تختص بهذا المجال، وكفى به برهاناً على التخلف الذي نحن فيه.

فلابد من أن تصدر دورية واحدة على الأقل وأن تكون في هذه الحالة باللغة الإنجليزية باعتبارها اللغة العالمية والقادرة على جمع الباحثين المسلمين عرباً وعجماً، وليكون صوت المسلمين وآراؤهم ومواقفهم معروفة للعالم الآخر وللاستفادة من آراء غير المسلمين ومواقفهم، وللتأثير في مسيرة العلم على مستوى العالم. والأمر في الحقيقة ليست مشكلة ولا تنقص العالم الإسلامي أو أيّ مؤسسة من مؤسساته الإمكانات المادية لإصدار مثل هذه الدورية أو عشرات من أمثالها، إنما الأمر في توفر الداعي والحرص الكافي والعمل على تحقيق هذا الحرص، وذاك الداعي مرة أخرى واجب الزمرة المثقفة الواعية والمجتمع الأكاديمي المستنير. ولابد لهذه الدورية أن تتبع مركزاً عالمياً مستقلاً، ولعل ما أعلن في قطر أخيراً إنشاء "مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان"، يوفر فرصة تاريخية لتحقيق هذا الذي نصبو إليه.

فهذه هي بعض أهم العوائق التي تمنع قيام هذا العلم في العالم الإسلامي، ومن العيب أن نكون في مجال الأديان وفي مجال الفكر الديني العالمي مستهلكين وألا نملك أيّ إنتاج نقدمه للعالم ونحن نمثل ربع سكّان المعمورة ونملك رسالة عالمية. فإذا كنا نحس بضرورة أن يكون لنا وجود ما في خريطة الفكر الديني العالمي، فإنه يتعين علينا أن نتغلب على هذه العوائق بالعمل الجاد ويمكن للأقسام التي تحمل اسم مقارنة الأديان في جامعات العالم الإسلامي أن تعيد تنظيم نفسها وتلعب دوراً جوهرياً في هذا المجال.

ما ينتظر من هذا العلم:

إذا كنت قد عرّفت بعلم الأديان في بداية البحث وانتهيت من بيان معوقات قيامه في العالم الإسلامي فقد آن لي أن أعبر عن تصوري لموضوع هذا العلم ومجالات نشاطه. فموضوع هذا العلم كما هو واضح من التعريف هو الأديان تاريخاً وتطوراً، تحليلاً ومقارنة، عقائد وأصولاً، مذاهب وفرقاً.

فهو ـ إذن ـ موضوع محدد في إطاره العام، ومستمر باستمرار الأديان والإنسان. لكن هناك قضايا أساسية ينبغي أن يضطلع بالبحث فيها هذا العلم في مقدمة أنشطته وديباجة ظهوره. ويمكن تعداده ـ فيما أرى ـ في النقاط التالية:

أولاً: جمع المادة القرآنية والنبوية في مجال الأديان وتصنيفها ودراستها:

فهناك في القرآن الكريم مئات الآيات الكريمة حول الأديان المختلفة والمذاهب الدينية. فهي في بعضها تعرض نواحي تاريخية، وفي البعض الآخر مسائل عقدية، وفي البعض الثالث تناقش قضايا منهجية، وفي البعض الرابع تتناول قضايا العلاقات الاجتماعية بين الأديان بأوسع معانيها، وفي البعض الخامس تقدم تقريرات محددة حول كثير من المسائل التي تعتبر في صميم ما يعرف بفلسفة الدين وعلم الاجتماع الديني.

وتأتي السنة النبوية الشريفة في جانبيها القولي والعملي لتلقي مزيداً من الضوء نظرياً وتطبيقياً على الهدي القرآني.

ولا يمكن لعلم الأديان في العالم الإسلامي أن يقوم على إهمال الهدي القرآني والنبوي في المجال.والحق أن المعطيات القرآنية والنبوية ينبغي أن تكون منطلقات هذا العلم بغض النظر عما يمكن أن يقوله الآخرون بهذا الشأن باسم العلمية والموضوعية والحيادية. وكلها مصطلحات منهجية لا أظن أن لها تحديدات واضحة مجمعاً عليها بين الباحثين في مجال الأديان إلى يومنا هذا. ولا يضر علمية العلم ولا يطعن في موضوعيته اعتماده على الوحي الذي يعتبر أرقى مصادر المعرفة وأدقها وأسماها.

وهنا مجال للفكر الإسلامي ليخوض في بحث هذه المصطلحات من حيث مدلولاتها وحدودها في ضوء القواعد العقلية الثابتة والتقارير العلمية الواضحة. وينبغي أن ندرك أن مقررات الغرب في هذا المجال ليست حجة لا على العقل ولا على المنطق إلا في حدود توافقها مع القواعد العقلية والقوانين المنطقية.

إن جمع المواد العلمية الخصبة التي يقدمها القرآن في موضوع الأديان على النحو الذي أشرنا إليها آنفاً وتصنيفها موضوعياً يهيّئ منطلقاً أساسياً ممتازاً لهذا العلم الذي نريده، إن هذا العمل يوفر قاعدة علمية لدراسة القضايا المختلفة التي تناولها القرآن الكريم مما يدخل في اهتمام علم الأديان كما ييسّرُ دراسة علمية مقارنة بين القرآن الكريم والكتب المقدسة الأخرى من ناحية،وبين رؤية القرآن الكريم وبين الاتجاهات المختلفة في علم الأديان المعاصر وكثير من النظريات التي تقدمها العلوم المعاصرة المرتبطة بالأديان مثل علم الاجتماع الديني، وفلسفة الدين، وعلم تاريخ الأديان، وعلم النفس الديني من ناحية أخرى، وهذا في حد ذاته مجال فسيح يوفر للنشاط العقلي الإسلامي فرصة جيدة لمناقشة النظريات الحاضرة، والإسهام في محاولات العقل المعاصر لفهم الدين في أبعاده المختلفة.

وهنا أيضاً تحدٍ كبير للعقل الإسلامي ينبغي أن يتعامل معه بصورة صريحة وواضحة وبروح علمي متعاطف. وأتصور هذا التحدي في شكل السؤال التالي: هل من "العلمية" و"الموضوعية" أن يقوم علم

لدراسة الأديان منطلقاً من "النص الديني" المقدس لدين معين؟ ومعنى كونه منطلقاً أنه سيمثل الإطار العام الذي يضبط التوجهات والمعيار الذي يوجه النشاط. وهذا يعني أن العلم يؤسس على الدين، ويعني كذلك أن تكون معطيات دين معين وإيحاءات نصه المقدس هي الحاكمة على تصورات الإنسان في المجال؟

وهذا أمر لا يعرفه الغرب الحديث ولا العاملون في مجال دراسة الأديان في العالم المعاصر. هنا في الحقيقة أعقد قضية تمثل الحد الفاصل بين الفكر الإسلامي والفكر غير الإسلامي وخاصة الغربي في مجال الأديان، ويمثل مشكلة منهجية كبيرة. ومحاولة التغلب على هذا الإشكال في إطار العقل والمنطق وفي إطار تعاطف علمي وروح أكاديمية منفتحة ليس أمراً سهلاً ويحتاج إلى جهود فكرية مضنية من جانب المسلمين. وهذا هو التحدي الكبير الذي ينبغي أن يتعامل معه هذا العلم في العالم الإسلامي.

إن من تحصيل الحاصل أن نقول: إن المسلم لا يستطيع أن يتنكر لمقررات دينه الواضحة في أيّ وقت من الأوقات، ولا يستطيع أن ينسلخ مما يعتقده بالحجة والبرهان حقاً ثابتاً. فهل هو في هذه الحالة يستطيع أن يعطي للأديان الأخرى حقها؟ وهل يستطيع أن يحافظ على الموضوعية وشروط العلمية؟ فلابد للعقل الإسلامي أن يعمل جاهداً لكي يقدم مقرراته الدينية كمقررات علمية تتطابق مع مقتضيات العقل، ولكي يبين أن الاعتماد على الوحي لا يمكن أن يطعن في علمية الدراسة بشرط أن يثبت الوحي ثبوتاً علمياً بكل ما يعنيه وصف "العلمي". وهذا يقتضي دراسة علمية جادة لقضية "الوحي" من جميع النواحي ومعالجة جميع الشبهات التي يمكن أن تثار حوله الأمر الذي يمكن أن يسهم فيه علوم القرآن الكريم وعلم الكلام إسهاماً بالغاً.

على أني أقول: إن انطلاق المسلم من معطيات دينه، ولا يستطيع غير هذا، لا يتعارض أبداً مع دراسة الأديان الأخرى دراسة علمية موضوعية، لأن كل دين يدرس في إطاره الخاص وفي ظل معطياته النصية والتاريخية والواقعية، ثم المعيار في إصدار الأحكام إن أراد الباحث المسلم ذلك يكون في ضوء معطيات العقل وهي معطيات لن تتناقض مع قناعاته الشخصية كمسلم. فالمشكلة في الآخر إن كان يريد أن يتحاكم إلى العقل والمنطق أم لا؟.

وحتى في هذه النقطة قد يكون للفكر المعاصر إشكالات وتساؤلات ؟ وعلى الباحث المسلم أن يكون مهيّأً لمواجهتها علمياً والتغلب عليها بصورة مقنعة.

وأتصور أن التعامل الجاد مع هذه القضية حريٌّ بأن يخرج الباحث المعاصر في مجال الأديان من التيه الذي يعيشه ويعيد بناء النشاط المعاصر في الأديان على أسس علمية واضحة ويفسح المجال للتصور الإسلامي لكي يتفاعل مع التصورات الأخرى الموجودة.

ثانياً: صياغة مناهج علمية تمثل رؤيتنا وتقنع العقل الإنساني:

وهذا في الحقيقة مجال واسع للحركة الفكرية والنشاط العلمي في العالم الإسلامي؛ فقضية المنهج قضية أساسية، وعلى الرغم من مضي أكثر من مائة عام على ظهور علم الأديان في الغرب، فإن قضية المنهج لا تزال عائمة و مجال مناقشة متجددة بتجدد معلومات الباحثين والعلماء عن الأديان. وليس هناك اتفاق واضح حول المنهج العلمي المقبول كما لا يوجد هناك اتفاق حول الهدف المنشود.

ولا يتصور العقل الإسلامي أو أيّ عقل سليم علماً لا يملك منهجاً أو مناهج قادرة على مساعدة الباحثين وإرشاد العاملين، ويكون معياراً فاصلاً بين المقبول من الرأي والمرفوض منه.

والحقيقة، أن القرآن الكريم قدم مناهج متنوعة للتعامل مع الأديان دراسة وبحثاً ومقارنة وحواراً كما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال تطبيقاته وتقريراته ما يلهم المشتغلين بهذا العلم بشأن المنهج، ولقد طبق بعض علماء المسلمين في دراساتهم العلمية للأديان مثل البيروني مناهج علمية يمكن أن تعين الباحثين المعاصرين في سعيهم لصياغة المناهج أو تطويرها. وربما نجد شيئاً من ذلك عند الشهرستاني ومن قبله عند أبي الحسن العامري وابن حزم وعند الإمام الغزالي[29].

ولقد ابتدع الغرب في العصر الحديث عدداً من المناهج في هذا المجال وكثيراً من الأساليب في تطبيقها يعتبر ـ على الرغم من كل ما يمكن أن يقال فيها ـ من أحدث ما وصل إليه الفكر الإنساني في هذا الصدد، ولا يمكن أن يغض الفكر الإسلامي الطرف عنها أو أن يعمل بعيداً عنها، بل على العكس لابد من الاستفادة من إيجابياتها وإيحاءاتها والإسهام ـ من خلال تناول نقدي ـ في تطويرها وتحسينها والتغلب على سلبياتها. وفي هذا المجال على وجه الخصوص يمكن أن يلعب الفكر الإسلامي دوراً عالمياً كبيراً، ويسهم بإنتاجه وإبداعه في تطوير الدراسات العلمية المعاصرة للأديان، وفي توجيه نشاط الفكر العالمي.

ولعل من ألصق القضايا بمشكلة المناهج قضية الحدود بين علم العقيدة وعلم الأديان. ففي العالم المعاصر تعتبر الدراسات العلمية للأديان أي علم الأديان مختلفة تماماً عن الدراسات اللاهوتية. ففي الوقت الذي تعتبر الثانية قائمة على معطيات إيمانية تتصور الأولى مجالاً علمياً علمانياً لا ينطلق من موقف تأييد أو رفض لأيّ دين من الأديان. وهل هذا النموذج الحالي يتفق مع الرؤية الإسلامية لعلم الأديان؟

وهل يمكن للفكر الإسلامي في مجال الأديان أن يساير الموقف الغربي في تبنّي مناهج الدراسات

29- انظر بحثي: "من مناهج علماء المسلمين في دراسة الأديان"، **حولية** الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، العدد الأول 1994م.

العلمية في مجال الطبيعة للتعامل مع الأديان؟ وهو موقف يختزل الدين اختزالاً في ظواهر تقبل الملاحظة ويغفل تماماً تلك التي لا تقبلها وقد تكون هي الأكثر أهمية والأدق تعبيراً.

نعلم جميعاً أن "اللاهوت" في العصور الوسطى قد اعتبر ملكة العلوم وهو كذلك في كل الأديان. لكن الدراسات العلمية الحديثة للأديان في الغرب نجحت إلى حدّ كبير في إحلال علم الأديان محل علم اللاهوت ووظفت مناهج من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ والحركة الظاهراتية في محاولة تحقيق أهدافها رافضة أيّ سلطة غير سلطة هذه المناهج. وهل لعلم الأديان في العالم الإسلامي أن يقف من هذه التطورات موقف المتفرج بدون أن يسأل: هل من الموضوعية دراسة الأديان في إطار مبادئ العلمانية وفي ظل مناهج استحوذت عليها "العقلانية التنويرية"؟

وهذا بطبيعة الحال يقتضي هضماً لما سبق، واستيعاباً لما ظهر، وعملاً جاداً في الرصد والدرس، ويستلزم منبراً ـ لتكن "دورية" علمية مثلاً ـ يلتقي خلالها الباحثون والدارسون، يعرضون ما عندهم ويناقشون بروح علمية نزيهة كفيلة بالإبداع.

ثالثاً: إحياء التراث الإسلامي في مجال دراسة الأديان:

لقد قلت في بداية هذا البحث: إننا لا نستطيع ادعاء وجود علم الأديان في العالم الإسلامي. وهذا لا ينفي أن تكون هناك جهود كبيرة للمسلمين في دراسة أديان الأرض على مر العصور، وهي كثيرة إلى درجة يستغرب معها أحياناً قولنا بعدم وجود هذا العلم.

وبطبيعة الحال، إن وجود جهود مهما كانت عظيمة وكثيرة لا يمكن أن يحملنا على الإيمان بقيام العلم ما لم يكن هدفه واضحاً، وموضوعه معروفاً، ومفهومه محدداً، ومنهجه معلوماً كما بيّنت فيما سبق، وأنا أزعم أنه لم تتوفر هذه الأمور فيما يخص هذا النشاط الذي ظل نشاطاً علمياً بدون أن ينتظم جوانبه تعريف أو موضوع أو منهج. لقد كان النشاط فردياً وآنياً وجزءاً من الاهتمام الكلامي العام في معظم مظاهره. وإن كان لهذه الجهود أن تصنف تصنيفاً دقيقاً فأولى بها ميدان "الجدل الديني". نعم، لقد نجد في ثنايا هذا النشاط الجدلي مناهج عظيمة، وأفكاراً رائدة، ونظرات غير مسبوقة، و تنبيهات إلى مسائل ومشاكل طوّرتها الاتجاهات الحديثة، وتبنتها المناهج المعاصرة.لكن هذا كله، مع ما له من فضل السبق والريادة، ومع ما يدل على ما كان عليه العقل الإسلامي من إبداع وانفتاح وعمق وتأصيل ـ يظل نشاطاً متفرقاً غير موصول.

فالمطلوب من علم الأديان الذي ندعو إليه أن يهتم بهذا التراث الخصيب لتحقيق أهداف علمية تعين هذا العلم، والاهتمام بهذا التراث ينبغي أن يأخذ صوراً متعددة أوجزها فيما يلي:

أ ـ التنقيب عن هذا التراث وجمعه وتصنيفه: وهذا عمل يحتاج إلى جيش من الباحثين من مناطق مختلفة من العالم، فهذا التراث تزخر به خزانات المكتبات في بقاع شتى من العالم، والجهود الكبيرة التي بذلها كارل بروكلمان وما أعقبها من جهود فؤاد سزكين أوقفتنا على جملة كبيرة من هذا التراث وبعض مظانه. ومع ذلك لا تزال هناك مخطوطات ثمينة في كثير من مكتبات الهند، وخاصة في مكتبة خدابخش بمدينة "پتنه" (Patna) بولاية "بهار" (Bihar) الشهيرة، وفي بعض المدارس التقليدية في جنوب آسيا، وأماكن متفرقة في وسط آسيا، تلك المنطقة المهمة جداً بالنسبة لتراث الفكر الإسلامي في كافة مجالاته. وفي بلاد الصين مخطوطات نادرة لم تصل إليها أيدي الباحثين، وجملة لا بأس بها منها في اللغة العربية.

وإذا كان التراث الإسلامي في العالم العربي في غالبيته عني كثيراً باليهودية والمسيحية فإن التراث الآسيوي قد اهتم بالأديان الشائعة في تلك المنطقة من الطاوية والكونفوشتية والبوذية والهندوسية على اختلاف مدارسها، بالإضافة إلى المسيحية. فهذا إذن تراث علمي زاخر ينبغي لهذا العلم أن يعتني به تنقيباً، ثم جمعاً وفحصاً، ثم ترتيباً وتصنيفاً.

وكذلك في بلاد الأناضول ودول البلقان ثروة ضخمة من كتابات المسلمين في الفكر الديني والأديان وخاصة المسيحية الشرقية والطوائف اليهودية تنتظر كشف النقاب عنها.

ويمكن للجامعات الإسلامية الكبيرة مثل جامعة الأزهر التي تؤوي آلاف الطلاب الوافدين (فهناك ما يقرب من سبعة عشر ألفاً من الطلاب الوافدين في عام 2005م) أن تستخدمهم في مشروع التنقيب هذا وإعداد فهارس علمية بهذا التراث الخصيب. وكذلك الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد التي تؤوي عدداً كبيراً من الطلاب الوافدين من مختلف بقاع الأرض وخاصة من الصين ووسط آسيا وإفريقيا (54 دولة في عام 2005م) وفيها قسم لمقارنة الأديان متطور بالمقارنة مع كثير من الأقسام المماثلة في الجامعات العربية والإسلامية،يمكن أن تلعب دوراً مهماً في هذا المجال.

فإذا استطعنا إنجاز هذه المهمة الضخمة ـ وهي ليست مستحيلة إذا توفرت الإرادة مع التشجيع المادي والمعنوي اللازم، والتدريب الفني والعلمي المناسب ـ فإن هذا يعتبر إنجازاً عظيماً لهذا العلم، وإسهاماً علمياً عظيماً في إثراء الفكر العالمي وتنشيط البحث العلمي في الأديان. ويساعد هذا التنقيب والتصنيف الباحثين في تاريخ الفكر العالمي على تتبع مسيرة الفكر الإسلامي في كثير من المناطق التي أهملتها الدراسات الدينية والفلسفية المعاصرة على الرغم من الإبداع والعمق الذي ينبئ عنهما هذا التراث في شبه القارة الهندية ووسط آسيا وبلاد فارس وبلاد البلقان، ويتيح لنا كذلك فرصة ذهبية لتتبع أدق

لتطور الفكر الديني العالمي على مر العصور وخاصة فترة ما قبل العصر الحديث. و مما في هذا التراث العلمي في هذه المناطق من أمور قد تكون مثار اهتمام بالغ من المسلمين وغيرهم من المعنيين بالعلاقات الإيجابية بين أتباع الأديان من حيث إنها توقفنا على التفاعل الإيجابي الذي تم بين الإسلام وغيره من الأديان هناك وهو تفاعل وتعايش يحتاج العالم المعاصر أن يتعلم من دروسها الكثير والكثير.

ب ـ نشر ما لم ينشر من هذا التراث: وهذا جانب بدونه لا قيمة لذلك التنقيب والتصنيف الذي تحدثنا عنه. وهنا مرة أخرى يمكن أن تسهم الجامعات الكبيرة إسهاماً كبيراً من خلال تكليف طلاب الدراسات العليا المتفوقين علمياً، والقادرين فنياً،والعارفين لتاريخ المنطقة السياسي والاجتماعي والثقافي بالإضافة إلى إجادتهم للغات تلك المناطق أن يقوموا بتحقيق هذه المخطوطات تحت إشراف علمي دقيق من قِبل أساتذة يملكون الخبرة المطلوبة. ويمكن لهؤلاء الطلاب الباحثين أن يكسبوا درجاتهم العلمية من ماجستير أو دكتوراه بهذه المشاريع البحثية.

ويمكن للمجامع العلمية والمراكز البحثية في البلاد الإسلامية أن تتبنى مثل هذا العمل من خلال مشروعات علمية بالتعاون مع مراكز بحثية ومعاهد علمية وجامعات محلية في تلك البلاد في صورة مشروعات مشتركة، وفي صورة تمويل كراسي وغيرهما من الصور.

والحقيقة أن الجهود الإسلامية في مجال التنقيب وفي مجال الفهرسة والتصنيف، وفي مجال النشر العلمي في العصر الحديث لا تذكر في مقابل ما قام به علماء الغرب ويقومون به. ومعظم التراث الإسلامي المنشور في مجال الأديان وفي غيره من المجالات الإسلامية والاجتماعية والإنسانية وغيرها يعود فضله ـ كما يعلم الجميع ـ إلى الباحثين الغربيين المحدثين والمعاصرين وإلى الجامعات الغربية والمراكز البحثية فيها أو باحثين مسلمين وظّفتهم الهيئات الغربية أو اعتمدتهم الجامعات الغربية.

ومن سلبيات البحث العلمي في العالم الإسلامي وخاصة في العالم العربي وبالأخص بين أساتذة الجامعات أنهم ـ في أغلبهم ـ لا يعمدون في كثير من الأحيان إلى الكنوز المدفونة ينقبون عنها ويحققونها، إنما ينتظرون ما يخرجه علماء الغرب أو الشرق من نشرات للتراث الإسلامي يصطادونها بعد حين، ويعيدون نشرها بعد إضافة بعض التعليقات التي لا تضيف شيئاً في الغالب باسم التحقيق. والمبرر دائماً امتلاء النص المنشور بأخطاء كثيرة وفاحشة. وكثيراً ما يحدث أن يكون النشر القديم أفضل من النشر الحديث، لكن نفاد القديم في السوق أو الأخطاء في ما نشر، يسمح دائماً بإعادة النشر في تحقيق جديد يحاول ـ كما تزعم المقدمات دائماً ـ تجنب سلبيات النشر القديم.

والحقيقة، أن نشرة ثالثة ورابعة وخامسة تظهر بنفس المبررات وبنفس المنهج بدون أيّ محاولة لمد اليد إلى إبراز ما لم ير النور قط. وهذا الوضع يدل على ضعف فكري وكساد ذهني وكسل علمي.

والغريب، بل المؤلم حقاً، أنه على الرغم من حرص باحثينا وأساتذة جامعاتنا على تحقيق المحقق، ونشر المنشور فإنهم لا يعمدون حتى في هذه المحاولات إلى ما يحتاج فعلاً إلى إعادة تحقيق أو زيادة تعليق أو تحديث. أننا لم نجد مثلاً حتى الآن نشرة علمية لكتاب **الملل والنحل** للشهرستاني أو البيروني أو **الفصل** لابن حزم نشرة تجعل قراءتها فيما يخص الأديان المختلفة أمراً ميسوراً ومفهوماً.

والمرحلة تقتضي الخروج من هذه السلبية العلمية، وارتياد ميدان التحقيق العلمي بمعنى الكلمة، وتوفير تلك الكنوز العظيمة المدفونة في مكتبات العالم لتحقيق تلك الأهداف العلمية النبيلة التي أشرنا إليها في آخر حديثنا عن أول صورة من صور الاهتمام بالتراث العلمي الإسلامي في مجال الأديان.

ولحسن الحظ، يوجد في العالم الإسلامي عدد كبير من القادرين ـ علمياً وفنياً ـ على ارتياد هذا الميدان الفسيح، ولكنهم عاجزون مادياً، الأمر الذي يقتضي توفر تمويل سخي أو تبني مؤسسات علمية لهذا المشروع.

وعندما نقرأ دليل الجامعات والمعاهد العليا ومراكز البحث في البلاد الإسلامية نجدها تزيد على الألف وهي في ازدياد. وإذا تبنى كل جامعة أو معهد أو مركز مشروع بحث واحد في مجال الأديان سيكون لدينا في غضون بضع سنين أكثر من ألف مخطوطة منشورة نشراً علمياً محققاً.وهل هذا مطلب يصعب تحقيقه؟ إنها الإرادة والإحساس بالذات هما مفتاحا الإنجاز في هذا المجال.

ج ـ دراسة نقدية تاريخية لهذا التراث: وينبغي أن تكون الصورة الثالثة لإحياء التراث الإسلامي في مجال الأديان هي القيام بدراسة نقدية شاملة لهذا التراث كحركة فكرية إسلامية، تحاول التأريخ لها، والبحث في اتجاهاتها ومناهجها، ودوافعها وأهدافها، مع عناية خاصة بإطارها التاريخي في أبعاده الاجتماعية المختلفة. وهذه الدراسة التاريخية النقدية الشاملة تعود علينا بفوائد علمية كبيرة لا تقدر، منها على سبيل المثال لا الحصر:

* إنها تسمح لنا بالتعرف على تفاعل العقل الإسلامي مع الأديان والثقافات في ظل الظروف المتغيرة والبنى الاجتماعية المختلفة. وسنعرف من خلال مثل هذه الدراسات كيف تعامل العقل الإسلامي مثلاً مع البوذية والكونفوشيسية وكذلك المسيحية في الصين وكيف اتفق أو اختلف هذا عن مثيله في الهند، أو الأندلس أو بلاد البلقان. وهذه خبرة تاريخية لا تقدر بثمن نحتاج إلى استخلاص دروس منها في محاولتنا صياغة صور مثلى للتفاعل الحضاري مع المجتمعات الثقافية المختلفة.

* إنها تعرفنا أكثر بمدى قدرة الإسلام على التعايش الديني وعلى المشاكل التي تعوق نجاحه مما يعود إلى اختلاف الثقافة والظروف السياسية والاجتماعية.

* إنها تعرفنا بفاعلية العقل الإسلامي وإبداعاته ومدى تأثير البيئة فيها إيجاباً وسلباً. وتراث الفكر الإسلامي الصيني والهندي والإفريقي والوسط آسيوي والبلقاني في مجال الأديان يمتلئ بنماذج رفيعة وصور عالية القيمة تستحق العناية والدراسة والاستفادة.

* إنها توقفنا على كيفية الاختلاف في تمثل الدين أو صور التدين والصيغة التي يظهر بها الدين من مجتمع إلى مجتمع وكيف تؤثر البيئة فيها. إن قضية وحدة التعاليم وتنوع تجلياتها الثقافية والاجتماعية موضوع يعني العقل الإسلامي المعاصر الاستفادة من الخبرة المتاحة فيه.

* إنها توقفنا على طبيعة الجدل الديني واختلاف تجلياته حسب تغير المجتمعات وكيف تؤثر العلاقات الاجتماعية والأنماط السلوكية والمظاهر الثقافية في تشكيل تلك الطبيعة وتحديد تلك التجليات أوتطويرها.

والحقيقة أن العالم الهولندي السويسري "جاكس واردنبرج" ـ وهو على صلة جيدة بالعالم الإسلامي وبهيئات إسلامية كثيرة ـ قام بإصدار ثلاثة كتب مهمة بمثابة تاريخ مجمل ـ وإن يكن مقتضباً ومنتفياً ـ لهذا التراث الإسلامي إلى يومنا هذا.وعلى الرغم من الجهد العلمي الكبير الذي نجده في هذه الكتب إلا أنها في النهاية تمثل تناولاً غربياً أو قراءة غربية لهذا التراث. وهو في كل الأحوال جهد مشكور يسهل الأمر لمن يريد متابعة العمل من الباحثين المسلمين(30).

رابعاً: تحليل الجهود الغربية في مجال الأديان وتقييمها وتقويمها:

هذا في الحقيقة باب كبير ومهم من أبواب هذا العلم الذي نتحدث عنه ويحتاج إلى جهود كبيرة ومعرفة واسعة بالإنجازات الغربية.

فقد أنجز الغرب الكثير خلال مائة وخمسين عاماً ماضية، سواء في ميدان الدراسات الوصفية للأديان، أو في ميدان المقارنة، أو تحقيق النصوص وتفسيرها، أو في مجال المناهج الخاصة بدراسة الأديان، وتميزت هذه الإنجازات بإشراك علوم مختلفة فيها مثل علم الاجتماع، وعلم النفس، والفلسفة، والتاريخ، والأنثروبولوجيا، وعلم الآثار، واللسانيات وغيرها مما يمكن أن يفيد من قريب أو بعيد في تناول الأديان،

30- انظر كتبه التالية:

Waardenburg, Jacques, *Muslims and Others ,Relations in Context*(Walter de Gruyter, Berlin- New York, 2003).

Waardenburg, Jacques, ed, *Muslim Perceptions of Other Religions: A Historical Survey*(New York. Oxford 1999).

Waardenburg, Jacques: "Islam, Islamic Studies and the Study of Religion".

عقيدة وشريعة، ونظماً وآداباً، وتاريخاً وحضارة وفلسفة وفنّاً، ومذاهب وفرقاً، كما تميّزت بشخصيات علمية توفرت فيها ولديها وسائل الإتقان والإجادة، والإبداع والإفادة.

لقد أبدعت الجهود الغربية فردياً وجماعياً قواميس ومعاجم وموسوعات وفهارس لم يستطع الفكر الإسلامي المعاصر حتى من الاقتراب من بعضها فضلاً عن دراستها وتحليلها، وبهذا استطاع هذا الفكر بل استحق أن يفرض نفسه، وأن تصبح مصطلحاته هي المقبولة علمياً، ومناهجه هي المعتبرة أكاديمياً، ومعاييره هي المرضي عنها عالمياً، وتوجهاته هي المحددة للاتجاهات الفكرية في مجال البحث العلمي في الأديان أصالة وانطلاقاً.

وعلى عظم ما أنجزه هذا الفكر وأهميته، وعلى قيمة ما أبدعه ومكانته مما لا ينكرهما إلا جاهل أو معاند، فقد امتلأت هذه الإنجازات بأخطاء علمية، وانحرافات تفسيرية، وأوجه قصور تحليلية في تناول الأديان العالمية لأسباب كثيرة، منها:

* التجاوز المفرط في تقدير العقل الغربي، والإيمان المطلق بسيادته.
* اعتناق أفكار مسبقة عن الأديان وأتباعها ينطلق منها الباحثون والعلماء.
* محاولة فهم الأديان والفلسفات غير اليهودية والمسيحية في إطار المنظومات الفكرية الغربية بعيداً عن عوالم تلك الأديان الخاصة.
* عدم إدراك البعد التاريخي والثقافي لمصطلحات الأديان.
* عدم المعرفة الكافية بلغات تلك الأديان.
* قصور إدراك التنوع الثقافي، وتعدد التعبير الاجتماعي لأتباع الديانة الواحدة غير المسيحية واليهودية اللتين اعتبرتا ـ مجتمعتين ـ المكوّنتين للخلفية الثقافية الدينية للعالم الغربي.

وهذه الأخطاء والمغالطات ـ على الرغم من محاولة بعض المعاصرين منهم للتغلب عليها وتصحيحها[31] ـ لا تزال تمثلها الكثرة الكاثرة من الكتابات الغربية التي أضحت مصادر الإنسان

31- لقد انتقد Richard King أستاذ الأديان بجامعة ستيرلينج (Stirling) التناول الغربي الحديث للأديان انتقاداً حاداً، وقال: إن الدراسة الغربية للأديان تمتاز بخصائص معينة من أهمها: تبني مناهج الدراسة العلمية في المجال الطبيعي، وإهمال الظواهر التي لا تقبل تطبيق ذلك المنهج، وتبني الإنسانية العلمانية مما أدى إلى إبعاد البعد اللاهوتي، وكذلك المركزية الغربية التي تطغى على هذه الدراسات، ويقول إن دعوى موضوعية الدراسة الغربية للأديان مقبولة فقط إذا أجيب على سؤال آخر وهو: هل من الموضوعية دراسة الأديان في إطار مبادئ العلمانية؟ انظر كتابه:

King, Richard. *Orientalism and religion, Post colonial theory, India and the mystic East*(Routledge, London-New York, 2000), p.41-47.

المعاصر ومراجعه عند الحديث عن الأديان.

بل إن هذا الفكر قد تبنّت آراء ونظريات حول كثير من القضايا الأساسية المتعلقة بالدين مثل مفهوم الدين ونشأته، وقضايا الوحي، والنبوة، والمقدس، والتجربة الدينية، والهيرمينوطيقا متأثراً بذلك بتيارات الفكر العلماني والتطوري والمادي، وأصبحت هي النظريات المقبولة والآراء العلمية السائدة، وتأثر بها كثير من أمم الشرق مما يدل على ما لهذا الفكر من نفوذ وتأثير وسيطرة على مسيرة الفكر الديني العالمي المعاصر تأسيساً وتوجيهاً.

وهنا المحك الحقيقي لقدرة العقل الإسلامي المعاصر في الإنتاج والإبداع والدخول إلى ميدان الفكر العالمي الفسيح من أوسع أبوابه، ومن شأن تأسيس علم الأديان في العالم الإسلامي على هدى وبصيرة، أي على أسس علمية سليمة وتخطيط مؤسسي دقيق أن يسمح لهذا الفكر بلعب دوره وإثبات ذاته والإسهام في تطوير هذا العلم وتصحيح مسيرته.

وهذه النظرة النقدية لإنجاز الغرب العظيم في مجال الأديان لا تجوز أن تصرفنا عن ملاحظة عيوب مماثلة في تراثنا الإسلامي وفي كتاباتنا المعاصرة في نفس المجال لأسباب مشابهة تماماً وربما بصورة أكثر فظاعة. وهذا جانب يمكن أن يكفل بمعالجته وتقييمه وتقويمه ما ذكرناه في النقطة الثالثة فيما ينتظر من هذا العلم.

خامساً: المتابعة المستمرة لعالم الأديان:

ندرك جميعاً من استقراء التاريخ الإنساني أن الدين يمثل العنصر الأساسي في تشكيل الشخصية الإنسانية السوية، قد اعتبره الإنسان على مر التاريخ أثمن ما يملكه وأغلى ما يعيش له. وإذا وجدنا إنساناً يضحي بدينه لأجل هواه ـ كما حدث في العصور الأخيرة في بعض المجتمعات ـ فإن هذا وضع شاذ يؤكد القاعدة. وهذا الشذوذ قد تنبه له الإنسان المعاصر من خلال الدمار الذي لحق به فرداً وجماعة وبالطبيعة في كافة مظاهرها وتجلياتها، وبالنظم الإنسانية السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

لقد ظل الدين مع الإنسان من أول يومه يوجهه ويرشده ويأخذ بيده، ويعطي لوجوده قيمة ولحياته معنى ولمجتمعه استقراراً ولنظمه حماية. وهذا ما أكده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّيْ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُوْنَ** ﴾ (سورة البقرة، الآية: 38).

ومع أن الأديان ظلت مستقرة وثابتة في جوهرها فقد تطورت مع الزمن في تجلياتها، واخترعت لنفسها صوراً توافقية مع متغيرات الزمن، وتطورات الحضارة الإنسانية. والدين مثل الكائن الحي، يبقى جوهره ثابتاً،وأعراضه متغيرة ومتطورة.

ومن أبرز الوظائف التي كانت الأديان تقوم بها أنها توفر المعنى للإنسان الذي بطبعه يبحث عن المعنى وراء كل ما يقوم به أو يتعرض له. ومادام الزمن متغيراً، والظروف متجددة، والحضارة متطورة، فإن الدين مطالب بمواجهة هذه الحالات جميعها، والاستجابة لمطالب الإنسان المؤمن ليستمر تواصله في أمن واطمئنان.

وهنا يتجلى لنا أهمية متابعة الأديان في تطورها التاريخي. وعلم الأديان إذا أريد له أن يعين الإنسان المعاصر فإن عليه أن يهتم بهذا الجانب. ومما يؤسف له أن الفكر الإسلامي لا يزال ـ على قلة اهتمامه بمجال الأديان ـ يعيش على تراث الشهرستاني وابن حزم غائباً عن ساحة الأديان المعاصرة وبعيداً عن تطوراتها بدون أن يدرك أن كثيراً من الفرق والطوائف والنظريات والمذاهب التي نجدها في هذا التراث أصبحت في ذمة التاريخ وتجاوزها الزمن، وظهر مكانها مذاهب وطوائف، ونظريات وتفسيرات لا علم لنا بأبعدها أو بأقربها.

وهنا ينبغي أن نذكر للغرب إدراكه لهذا الجانب المهم، فقد اتجه هذا الفكر يرصد ويتابع ويحلل ويستفهم ويسجل وينشر كل طارئ وكل ظاهرة، وكل تطور وكل تجديد في كل أديان العالم حتى يدرك موقعه ويعد نفسه ويحمي هويته ويستفيد من إيجابيات ما يلاحظه. وأصبح الإنتاج الغربي في هذا المجال هو المتاح لأيّ باحث يريد أن يقف على آخر ما وصل إليه أيّ دين من أديان العالم المعاصر في أيّ مكان في العالم.

بل إن علم الاجتماع الديني قد أخذ على عاتقه هذه التطورات الجديدة في عالم الأديان موضوعاً لاهتمامه ومركزاً لأنشطته، حتى يصرح بعض علماء الاجتماع الديني بأنه لولا متابعة هذه التطورات لما بقي هناك اليوم مبرر لقيام علم الاجتماع الديني(32).

وهل للفكر الإسلامي أن يلج هذا الميدان المهم والمطلوب بإلحاح بدون إطار علمي يوفره علم الأديان وما يعرف اليوم بالأديان الجديدة على كثرتها وكثرة التأليف الغربية فيها لا يعرف العالم الإسلامي شيئاً عنه(33).

32- Hunt, Stephen, *Religion in western society*(Palgrave, 2002), 1-6.

33- انظر في هذه الأديان الجديدة:

Peter Clarke, *New religions in global perspective*(Routledge, 2006).
Peter Clark (ed), *Encyclopedia of new religious movements*(Routledge, 2006).

سادساً: تمكين الدين من الإسهام في توجيه البحوث العلمية في جميع المجالات:

وهذا مطلب سيستغربه البعض في ظل ما يحرك البحث العلمي في الطبيعة والطب والسياسة والاقتصاد من أصول ومبادئ في عالمنا المعاصر. وللعالم ـ وخاصة الغربي ـ أن يقول: إنه لم يستطع أن ينجز شيئاً في أبواب العلم المختلفة في العصر الحديث إلا عندما هجر الدين وأبعده عن توجيه الأمور العلمية والتدخل في المسائل الدنيوية، لكن نتائج هذا التوجه العلمي البعيد عن الدين، والمعرض عنه دائماً والمعادي له في كثير من الأحيان كما تجلت سلباً في العقود الأخيرة في صورة التلوث البيئي، والدمار الطبيعي، والمحاولات اللاأخلاقية في مجال الطب، وفي صورة فشل النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في خلق عالم يتحقق فيه العدل والمساواة، ويحافظ فيه على حقوق الإنسان وكرامته بدأت تقنع الإنسان المعاصر على ضرورة التوجه إلى الدين وتبني سيادة الأخلاق قبل سيادة القانون.

إن علمنة الحياة الإنسانية في أبعادها السياسية والعلمية والتقنية والاقتصادية، والسماح للتيار المادي بقيادة مسيرة الحركة الإنسانية في العصر الحديث قد أضرت بالإنسان إضراراً بالغاً، حيث عصفت بالقيم الإنسانية، والمثل الاجتماعية التي عرفتها المجتمعات البشرية جميعها حتى عهد قريب، تلك القيم والمثل التي حافظت على التماسك الاجتماعي، والتكاتف الأسري، وازدهار ثقافة تجعل للإنسان هدفاً ثابتا، ولسلوكه معياراً واضحاً، ولعلاقته بالآخر بما فيه الطبيعة نفسها حدوداً معلومة ولحياته معنىً.

لقد عصف العصر الحديث بكل تلك القيم والمثل، وفشلت النظم الاقتصادية في تحقيق العدل، والنظم السياسية في تحقيق الأمن والاستقرار،والمذاهب الفلسفية في إخراج الإنسان من القلق والتيه، وكل هذا حدث بسبب إبعاد الدين عن مقعد القيادة، وإغفال الاستلهام من هديه وأصوله[34].

ومع أن العالم قد بدأ على يد علمائه ومفكريه وفلاسفته وهيئآته يتنبه إلى هذا الوضع الخطير الناتج عن إبعاد الدين عن موقع القيادة، وأصبح ينادي إلى معالجة الوضع بصورة سريعة، فإن الثقافة العالمية السائدة التي تولدت عن المرحلة الحديثة إبان عداوتها للدين أو إهمالها له في ظل العقلانية التنويرية لا تبدو مسعفة، ولا مبشرة بالخير الأمر الذي يقتضي جهوداً مضنية مشتركة من المجتمعات الدينية المختلفة لمساعدة الإنسان المعاصر التائه بين فشل النظم الاقتصادية، وديكتاتورية الديمقراطية، والعبث الفلسفي المتزايد.

34- انظر في هذا، الكتاب العظيم الذي ألّفه الفيلسوف الإنجليزي اليهودي المعاصر "جوناثان ساكس" بعنوان: **كرامة الاختلاف: كيف تتجنب صدام الحضارات"**.

Sacks Jonathan, *The dignity of difference*(London; Continuum 2003).

وأيضاً: دين محمد، **المسلمون والخريطة الدينية العالمية المعاصرة**، دار الهاني للطباعة، القاهرة، 2004م.

إن من شأن قيام علم للأديان نشيط أن يسهم إسهاماً بالغاً في هذا الجانب الذي يستلزم تكاتف الأديان وحديثها لغة عالمية واحدة، ويعتبر هذا الإسهام ـ إذا نجح ـ إنجازاً كوبرنيكيّاً هائلاً يضمن تصحيح المسيرة الإنسانية وإنقاذ الإنسان المعاصر الذي يموت أكثره في البلاد المتقدمة من اليأس والإحباط، والأمراض الناتجة عن القلق والشعور بالضياع.

سابعاً: إعداد موسوعات ومعاجم للأديان:

لقد أصدر العالم الغربي موسوعات ومعاجم وقواميس للأديان يعتمد عليها اليوم كل باحث في المجال في مشارق الأرض ومغاربها، وآخرها **موسوعة القرآن الكريم** EQ التي صدرت في أربعة مجلدات ضخمة. وعلى الرغم من الجهد العلمي العظيم الذي بذل، والإمكانات المادية التي استهلكت والرؤوس العالمية الكبيرة التي اشتركت في إنجاحها، فإن هذه الموسوعات والمعاجم والقواميس لم تسلم ـ كسائر أعمال البشر ـ من الأخطاء بكافة أنواعها نتيجة أسباب كثيرة، وما دمنا لم نسجل حضورنا في ذلك المجال فليس لنا أن نشتكي منها غير مقدرين لتلك الجهود، وغير مبدعين في نفس الوقت في تلك الموضوعات إبداعاً يستوفي الشروط العلمية ويستجيب لمتطلبات الموضوعية.

لقد آن الأوان للعالم الإسلامي أن يلعب دوره في هذا المجال، وأن يسهم مع الفكر العالمي في تصحيح ما أنجزه أو في تكملته، وأن يبدع فيه إبداعاً يجذب اهتمام العالم، ويستحق تقدير العلماء والباحثين.

وعلى الرغم من أن تاريخ الحضارة الإسلامية مليء بالنماذج والمؤلفات الموسوعية في شتى المجالات بما فيها الدين نفسه في حدود ما كان ممكناً في حينه، فإن العقل الإسلامي الحديث قد أعرض عن هذا الجانب لابتعاده عن الإبداع، وعجزه عن الرصد والتتبع والاستيعاب، وعدم تقديره لهذا الجانب كما ينبغي.

ولعل أول عمل علمي يستحق الوقوف عنده والإشارة إليه والإشادة به مما تم إنجازه في العصر الحديث في العالم الإسلامي هو تلك الموسوعة العظيمة التي أخرجها الدكتور محمد عبدالوهاب المسيري رحمه الله، باسم اليهود واليهودية والصهيونية في ست مجلدات.

وهناك في تركيا محاولة ممتازة لإعداد موسوعة علمية عالمية، لكنها خاصة بالإسلام أساساً[35].

35- اسم الموسوعة: **الموسوعة الإسلامية** (*Islam Ansiklopedisi*) لقد بدأ المشروع عام 1983م، وظهر المجلد الأول في 1988م والمجلد الثلاثون في أغسطس 2005م ويتوقع أن تصور الموسوعة في أربعين مجلداً، واشترك في إعدادها أكثر من ألفين من العلماء والباحثين من أنحاء العالم، وفي الخطة أن تترجم الموسوعة بعد نشرها بالتركية إلى اللغة الإنجليزية، ويقوم على هذا المشروع إعداداً وإنجازاً ونشراً مركز البحث الإسلامي في استانبول (Islam Aratirmalar Merkezi- Istanbul) برئاسة الدكتور Bekir Topaloglu ويساعده الدكتور Ahmad Ozel.

ومع ذلك فهي محاولة تستحق التقدير. أما ما عدا ذلك فلا يوجد في العالم الإسلامي على الرغم مما تصدره دور النشر باسم الموسوعة الدينية أو ما يشبه ذلك ما يستحق الإشارة. فهي مجرد تعبيرات ساذجة، أو تحليلات تافهة أو عرض بعيد عن الموضوعية والعلمية. ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك تلك التي أصدرتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي باسم **الموسوعة الميسرة**[36]، أو ما أخرجه دار الكتاب اللبناني باسم: **موسوعة أديان العالم**. وهل يتصور أن يقوم مجموعة من الناس ويصدروا موسوعة علمية في الأديان أو دار الفكر بعنوان: **موسوعة الأديان السماوية والوضعية** أو دار البشائر باسم: **موسوعة الأديان**. وليس أمامهم إلا **الملل والنحل** للشهرستاني أو بعض الكتب الثانوية التي لم تستطع أن تفي بمقتضيات المنهج العلمي أو البحث الموسوعي؟

وينبغي لعلم الأديان أن يسدّ هذه الثغرة، وأن يعمل في إصدار موسوعات ومعاجم وقواميس تعتمد على المصادر الأولية، وتستعين بباحثين من مختلف مناطق العالم وتخرجها في اللغات العالمية لا في اللغات المحلية، ولابد لهذه الجهود أن تتميز بكل ما يضمن لها الصيت والتقدير والانتشار والتأثير.

وإذا استطاع علم الأديان أن يظهر وأن يؤدي هذا الذي ننتظره منه، فإنه بالتأكيد سيسهم كثيراً في البناء الثقافي والاجتماعي والإنساني وفي خلق وعي ممتاز بالدين وأهميته وفي خلق جوٍ عالٍ من الانفتاح على أديان العالم وفلسفاته والتفاعل بينها بصورة إيجابية تفاعلاً تسعد بها البشرية، ويعم به السلام بين المجتمعات البشرية المختلفة.

لكن السؤال الحقيقي هنا من أين نبدأ؟ والإجابة عندي ليست صعبة. ومع أني أحس إحساساً حقيقياً بأن ظهور علم الأديان بهذه الصورة التي عرضناها يحتاج إلى وقت وجهد وصبر وعمل إلا أنه أمر يمكن تحقيقه إذا تم إدراك أهميته، واستيعاب فائدته، وإدراك قيمته للإنسان المعاصر وفي مقدمته الإنسان المسلم.إن مسيرة الألف ميل تبدأ بخطوة كما يقول المثل الصيني.

ولعل أول خطوة عملية نحو تحقيق هذا الإنجاز هو تنظيم مؤتمر عالمي تحت رعاية المؤتمر الإسلامي أو رابطة الجامعات الإسلامية أو جامعة الأزهر أو مؤسسة قطر يدعى له كل من له إسهام في مجال الأديان أو اهتمام به من المسلمين وخاصة تلك العقول الإسلامية العالمية الكبيرة من أمثال سيد حسين نصر، وسيد نقيب العطاس، كما يدعى له ممثلون من أقسام مقارنة الأديان في جامعات العالم

36- صدرت الطبعة الخامسة المزيدة المنقحة للكتاب عن دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، إشراف وتخطيط ومراجعة مانع بن حماد الجهني في 1424هـ – 2003م.

الإسلامي، بالإضافة إلى علماء بارزين من الغرب، وخاصة أولئك المشتغلون بالأديان وبالإسلام من أمثال جاكس واردنبرج، وجون اسبو سيتو، ووليم جيتيك، ووننستون كورنل وكارن آمسترونج وتشارلز آدمز وجان سميث وغيرهم ممن برزوا في المجال، ولهم عطاء علمي مشهود.

وينبغي أن يكون هذا المؤتمر مؤتمراً علمياً جاداً لا مكان فيه للمجاملات أو الهيمنات المحلية أو الإقليمية أو اللغوية، وأن يكون جدول أعماله مدروساً، وأن يهدف إلى وضع تصور واضح وصياغة خطة عمل ناجح.

ويمكن أن تكون جامعة الأزهر بجمهورية مصر العربية مكاناً لانعقاد هذا المؤتمر باعتباره أقدم جامعة عالمية وأكبر مركز علمي في العالم الإسلامي، وباعتبار مالها من مكانة في قلوب الملايين، وتقديراً للدور الذي قامت به ولا تزال تقوم به في نشر العلم في ربوع العالم الإسلامي.

إن هذا المؤتمر سيتيح لنا تشخيص حالتنا الراهنة في مجال علم الأديان وتقدير الوضع الراهن له في العالم الغربي، ويوفر لنا الخلفية العلمية والتاريخية اللازمة للتعرف على الخطوات التي علينا اتخاذها وتشكيل فرق العمل الضرورية لتنفيذها حتى يعرف هذا العلم بمبادئه العشرة اللازمة، وتكون له أصوله التي تقوم عليها، ومناهجه التي تعمل بها.

وتأتي الخطوة الثانية بإنشاء مركز علمي للبحوث الخاصة بالأديان يحتوي على قاعدة للمعلومات على أرقى ما يمكن أن يتصور، تحدث وتجدد، ويكون من مهام هذا المركز رصد ما يجري في عالم الأديان ومتابعته، وتوفير البيانات اللازمة للباحثين والأقسام العلمية في الجامعات، ويكون على تواصل علمي مستمر مع المراكز البحثية العالمية المختلفة في المجال، ويعمل فيه باحثون مؤهلون علمياً وثقافياً ولغوياً. وينبغي لهذا المركز أن يصدر دورية عالمية تكون منبراً لمناقشة الاجتهادات وعرض الأفكار في كل ما يتعلق بعلم الأديان موضوعاً ومنهجاً مما يسهم في تطوير العلم وتحسين العمل ومتابعة البحث، وأن تكون هذه الدورية باللغة الإنجليزية باعتبارها لغة عالمية وإن كان ممن الممكن أن تجمع بين الإنجليزية وعدة لغات إسلامية أخرى وخاصة العربية و الفارسية والأردية.

كما ينبغي أن تكون لهذا المركز مكتبة حديثة متميزة ومزوّدة بأحدث النظم المكتبية العالمية، تجمع كل شيء يتعلق بمجال الأديان من قريب أو بعيد. وليس من الضروري ولا من العملي أن ننتظر حتى تكتمل هذه المكتبة بهذه الصورة التي نذكرها لكن المهم أن نبدأ فيها ونستمر، وليس هناك نهاية لكمال المكتبات مادام العقل الإنساني يقظاً والفكر نشطاً والتفكير العلمي حيّاً.

وينبغي لهذا المركز أن يكون له موقع على الشبكة في عدة لغات وخاصة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية والأردية والفارسية والعربية. ويمكن أن يكون لهذا المركز فيما بعد فروع إقليمية تيسر العمل وتسرع في الإنجاز.

وينبغي أن يكون لهذا المركز ميزانية كافية لتمويل المشروعات بالتعاون مع الجامعات بعد موافقة الهيئة الاستشارية العليا التي ينبغي أن تتكون من علماء مرموقين في مجال علم الأديان من مختلف بقاع العالم.

ويمكننا أن نأمل من هذا المركز أن يقوم ـ في ظل خطة مرسومة علمية يسودها الإنصاف وترعاها الاعتبارات الموضوعية ـ باختيار من الرسائل الجامعية الموجودة في بعض الجامعات في العالم الإسلامي مما يتصف بالعمق والجدة والإضافة والأصالة لنشرها في لغتها وترجمتها إلى لغات عالمية مناسبة بعد تحريرها بمقتضى المنهج العلمي. والحق أن هناك رسائل جامعية عديدة متميزة تعالج موضوعات جيدة في مكتبات جامعة الأزهر والجامعة الإسلامية العالمية بباكستان والجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ومعهد الدكتور موكتي في إندونيسيا وفي بعض جامعات مشرقية ومغربية أخرى في العالم الإسلامي. إن وجود دورية لعلم الأديان تابع لهذا المركز يمكن أن يسهل حصر هذه الرسائل والتعرف عليها والانتقاء منها لأجل تحقيق هذا الهدف الكبير.

إن التعاون البنّاء بين هذا المركز وبين أقسام علم الأديان في جامعات العالم الإسلامي كفيل بتحقيق تلك الأمور التي أشرنا إليها، وتمكين الفكر الإسلامي من لعب دورٍ رائدٍ في خريطة الفكر العالمي المعاصر في مجال الأديان.

وفي تصوري أن هذه هي الخطوات الأولى التي ينبغي أن نتخذها لأجل بداية حقيقية لعلم الأديان في جامعات العالم الإسلامي.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

****